الحديث السادس والثلاثون

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « **من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفّت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه** » رواه مسلم و اللفظ له .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

أ ــ « كربة من كرب يوم القيامة . . » من المسلمات أن كرب يوم القيامة أشدّ وأخطر بكثير من كرب الدنيا . . ولقد تضافرت الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عنها لتصور لنا ذلك الهول الكبير ؛ الذى هو فوق أىّ تصور تشيب منه الولدان ، ويذهل المراضع ، وتسقط الحوامل أجنتها من الرعب والفزع .

قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل ما فى بطنها بغير تمام.

إن أهوال يوم القيامة التى ورد ذكر بعضها فى الآيات الوارد ذكرها تذهل العقول ،

نفس : أزال وكشف ، وأصل النفيس : فك خناق المخنوق حتى يأخذ نفسه بعد أن أشرف على الهلاك .

كربة : الشدة العظيمة .

ستر : بحيث لم يفضحه فى عوراته الحسية والمعنوية .

سلك طريقا : حسّيا بأن ولى وجهته دور العلم ، وحجّ مجالسه ومواطن أهله ، أو معنويا : بأن اتّبع مناهج المذاكرة وسبل التحصيل .

علما : علما دينيّا أو ما ينفع الناس فى أمور معاشهم المختلفة .

السكينة : الطمأنينة والوقار .

غشيتهم : عمّتهم وشملتهم من جميع الجهات .

ذكرهم الله : أثنى عليهم فى الملأ الأعلى .

من بطأ به عمله : من أخره عمله عن الوصول إلى درجات الصالحين .

وتذهب التمييز، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ ، ٢] .

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا .بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الزلزلة:١ ــ ٦].

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٤، ١٥].

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ [الواقعة : ٤ ــ ٦].

وهى من أساسيات العقيدة الإسلامية منكرها جاحد قطعا بهذا الرصيد الكبير من الآيات القرآنية .

ولقد صوّرت لنا بعض الأحاديث الصحيحة جانبا هامّا من كرب يوم القيامة كحديث عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ عن النبىّ ﷺ قال : « يحشر الناس حفاة عراة غرلا» قالت: فقلت: يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم بعضا ؟! فقال : «الأمر أشدّ من أن يهمهم ذلك » (١) . وكحديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»(٢) . قال ابن مسعود : الأرض كلها يوم القيامة نار ، والجنّة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها ، فيعرق الرجل حتى يرشح عرقه فى الأرض قدرَ قامة ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسّه الحساب ، قال : فمم ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : مما يرى الناس ما يصنع بهم .

ب ــ « . . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . . » معناه أن معونة الله لعباده المتمثلة فى هدايته لهم وتوفيقه إيّاهم متوقّفة على تعاونهم هم فيما بينهم ، وسعيهم فى قضاء حوائج بعضهم .

ومن ثم فشقاوة الإنسان وسعادته ، وهديه وضلاله لا يفرضان عليه فرضا ، وينزلان به قهرا ، بل لإرادته دخل ولاختياره جانب هام فى تحديد مصيره : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٨ ــ ١٠] .

نعم الهداية لا توهب حتى نحابى بها من نشاء ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى .

يَهْدِي من يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] . كما أن إنبات الأرض وإخراجه للزرع والثمار لا يتوقف على الزرع والغرس فحسب ، بل ويعود أيضا إلى نوعية التربة وصلاحيتها للغرس . ولكن هذا يجب ألا يعجز الزراع ويثبط جهودهم ، كما أن القلوب القاسية والآذان الصّمّاء والأعين العمياء ، لا تخرس ألسنة العلماء وتقعس الدعاة عن القيام برسالة الدعوة فى سبيل الله، ولهم فى نوح عليه السلام الأسوة الحسنة كما حكى عنه القرآن الكريم : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح : ٥ - ٩].

ونخلص إلى أن تذرّع المتهاون فى أركان الإسلام بعدم الهداية عين الحماقة والجهل؛ لأن أسبابها مبينة وسبلها مرسومة معلومة فمن رامَ الهداية فليسْعَ فى معونة أخيه !

جـ ــ ورد فى الحديث اسمان من أسماء السّاعة العديدة : القيامة والآخرة .

وسميت بالقيامة ؛ لقيام الناس أولهم وآخرهم لرب العالمين : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : ٦] . وبالقارعة ؛ لأنها تقرع القلوب والأسماع بأهوالها ، والحاقّة ؛ لأنها ثابتة الوقوع ، وبالخافضة والرافعة ؛ لأنها تخفض أقواما بأعمالهم الرّدية وترفع آخرين بأعمالهم الطيّبة .

والطامة سميت بذلك ؛ لأنه لا يمكن ردّها ، وبالصاخّة ؛ لأنها تصخ الآذان ، والزلزلة بتزلزل الأرض ، كما يطلق عليها : اليوم الموعود ؛ لأن الله وعد فيه أقواما بالجنّة ، وأوعد آخرين بالنار ، ويوم العرض ؛ لعرض الناس على ربّهم حيث تعرض أعمالهم إلى آخر ذلك من الأسماء التى سميّت بها يوم القيامة فى كتاب الله تعالى .

د ــ « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس اللهَ عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

فى هذا التعبير النبوى الدقيق نستشف بشارة تثلج صدور الساعين إلى التيسير على الناس فى الدنيا وهى حسن الختام والموت على الإسلام ، وذى غاية كل مسلم ؛ لأن الكافر لا يرحم فى الدار الآخرة ، ومن رحمته تعالى تفريجه للكروب وتنفيسه على النّفوس فى ساعة لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هـ ــ « . . وذكرهم الله فيمن عنده . . » .

ذكر الله لهم : ثناؤه عليهم فى الملأ الأعلى بين ملائكته المقرّبين ، ومباهاته بهم وتنويهه بذكرهم ، والعندية المرادة هنا ليست هى العندية المكانية تعالى الله عنها علوّا كبيرا ، لتنزّهه عن المكان والزّمان ، وهذا من مقتضيات عدم المماثلة التى هى صفة من الصفات الواجبة لله تعالى : قال ابن عاشر فى مقدّمة منظومته الفقهية :

يجب لله الوجود والقدم كذا البقاء والغنى المطلق عم

وخلقه لخلقه بلا مثال ووحدة الذات ووصف والفعال

أى لا يماثله تعالى شىء منها مطلقا ، لا فى الذّات ولا فى الصفات ، ولا فى الأفعال قال تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الشورى : ١١] ، فأول هذه الآية تنزيه وآخرها إثبات، فصدرها يردّ على المجسّمة وأضرابهم ، وعجزها يردّ على المعطّلة النافين لجميع الصفات (١) ، وأوجه المماثلة كثيرة : (بأن يكون جرما أى تأخذ ذاته العلية قدرا من الفراغ أو يكون عرضا يقوم بالجرم ،أو يكون فى جهة للجرم أوله هو جهة ، أو يتقيّد بزمان أو مكان، أو تتّصف ذاته العليّة بالحوادث ، أو يتصف بالصغر أو الكبر ، أو يتصف بالأغراض فى الأفعال أو الأحكام) (٢) . وإنما المراد بالعندية : التشريف فحسب .

و ــ «نفّس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة » . « يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة» . . . « ستره الله فى الدنيا والآخـرة » . الاعتماد على الله فى تفريج الكروب وستر العيوب، وتيسير الأمور من صميم العقيدة الإسلامية : ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾[الشعراء : ٧٨ ــ ٨٢] .

فمن شاب عقيدته ريب فى ذلك أو التجأ إلى من سوى الله أو ما سواه سواء كان نبيّا مرسلا ، أو ملكا مقربا ، أو شجرا أو مدرًا وحجرا بالعبادة فقد أشرك بالله واتخذ معه ندّا لا يملك له ضرًا ولا نفعا ، قال تعالى : ﴿ **يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** ﴾ [الحج : ١٢] .

التصوف :

١ ــ السّعى فى قضاء حوائج المسلمين ومعاونتهم فى شدائدهم ، والعمل على تيسير أمورهم من أسباب قبول الدّعاء، روى الإمام أحمد : « من أراد أن تستجاب

(١)الميارة الكبرى . (٢)الميارة الصغرى .

دعوته وتنكشف كربته فليفرج عن معسر » .

٢ ــ إن المتّقين يجدون دوما فى الدّعاء فرجة وتنفيسا ؛ لأنهم يتسامون به من حضيض الدنيا وينطلقون من بوّابته إلى العالم الفسيح عالم الالتجاء إلى الله الذى لا يعجزه شىء ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

وفى الحديث عن علىّ رضى الله عنه أن مكاتبا جاءه ، فقال : إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنى فقال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ولو كان عليك مثل جبل ثبير دينا أدّاه الله عنك ، قل : «اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، واغننى بفضلك عمّن سواك » (١) .

وعن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة جالسا فيه ، فقال :« يا أبا أمامة مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟» قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ! قال :« أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله ــ عز وجل ــ همك ، وقضى عنك دينك ؟ »فقال: بلى يا رسول الله. قال :« قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهّم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » قال : فقلت ذلك؛ فأذهب الله ــ عزّ وجل ــ همّى ، وقضى عنّى دينى (٢) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همّى ، إلا أذهب الله ــ عز وجل ــ همّه ، وأبدله مكان حزنه فرحا » قالوا :يا رسول الله ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟ قال : «أجل ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهنّ »(٣) .

٣ ــ ينزّل الله السكينة على حلق الذكر، ومدارسة القرآن الكريم عن البراء بن عازب قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلمّا أصبح أتى النبىّ ﷺ وذكر ذلك له، فقال :

---

(١) رواه الترمذى . (٢) رواه أبو داود . (٣) رواه أحمد .

«تلك السكينة تنزل للقرآن » (١).

وروى ابن المبارك عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن سعد بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ كان فى مجلس فرفع بصره إلى السماء ثم طأطأ بصره ثم رفعه ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : «إنّ هؤلاء القوم كانوا يذكرون الله تعالى ــ يعنى أهل مجلس أمامه ــ فنزلت عليهم السكينة تحملها الملائكة كالقبّة فلمّا دنت منهم تكلم رجل منهم بباطل فرفعت عنهم » . وفى الصحيحين عن أبى سعيد : أن أسيد ابن حضير بينما هو ليلة يقرأ فى مربده إذا جالت فرسه فقرأ ، ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضا ، قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى ــ يعنى ابنه ــ قال : فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها مثل أمثال السرج عرجت فى الجوّ حتى ما أراها ، قال : فغدا على النبىّ ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : « تلك الملائكة كانت تسمع لك ، ولو قرأت لأصبحت تراها النّاس ما تستر منهم » .

٤ ــ ليس فى الشريعة الإسلامية ما يحتكر لأناس دون الآخرين ، وليس فى الأذكار طلسمات وأسرار لا يفك رموزها ، ولا يطلع عليها إلا طوائف من الطرائق المبتدعة ، وقال رجل لأبى أمامة : رأيت فى المنام كأن الملائكة تصلى عليك كلما دخلت وكلما خرجت وكلما قمت وكلمّا جلست ، فقال أبو أمامة : وأنتم لو شئتم صلت عليكم الملائكة ، ثم قرأ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُه** ﴾ [الأحزاب : ٤١ ــ ٤٣] .

وصدق الله إذ يقرر عدله فى الجزاء ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ** ﴾ [آل عمران : ١٩٥] . ﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا** ﴾ [الكهف : ٣٠] .

الفقهية :

١ــ « ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة » التيسير على المعسر من جهة المال بوجوه عدة كإنظاره ، أوالحط عنه ، أو بإعطائه مالا على سبيل الهبة أو الصدقة وقد ورد الحث إلى هذه كلها :

ــ أوجب الله تعالى إنظار المعسر إلى الميسرة ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون** ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبى ﷺ بذلك :

فعن محمد بن كعب القرظى ؛ أن أبا قتادة كان له دين على رجل ، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبىّ فسأله عنه ، فقال : نعم هو فى البيت يأكل خزيرةً ، فناداه ، فقال : يا فلان اخرج ، فقد أخبرت أنك ها هنا ، فخرج إليه فقال : ما يغيبك عنّى ؟ فقال : إنّى معسر وليس عندى ، قال : آلله إنك معسر؟ قال: نعم . فبكى أبو قتادة ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نفّس عن غريمه أو محى عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة » (١) .

وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال : ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ فقال : ما عملت لك يا ربّ مثقال ذرّة فى الدّنيا أرجوك بها ــ قالها ثلاث مرات ــ قال العبد عند آخرها : يا رب إنك كنت أعطيتنى فضل مال ، وكنت رجلا أبايع النّاس ، وكان من خلقى الجواز فكنت أيسّر على المعسر وأنظر المعسر ، قال : فيقول الله ــ عز وجل ــ: أنا أحقّ من ييسر ، ادخل الجنّة » (٢) .

وعن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا ــ وأومأ عبد الرحمن بيده إلى الأرض ــ : « من أنظر معسرا أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنّم ، ألا إنّ عمل الجنّة حزن (٣) بربوة ــ ثلاثا ــ ألا أن عمل النار سهل بسهوة(٤) ، والسعيد من وقى الفتن ، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمانا » (٥) .

ــ ومن باب التيسير على أهل الكرب والتفريج عنهم إهداء الهدايا لهم والتصدّق عليهم ، وقد جاءت السنة بحشد هائل من الأحاديث النبوية التى تحثّ على التصدّق فليعد إليها من شاء فى مظانها .

٢ ــ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله إلا . . . . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . . . . » .

اختلف فقهاء الإسلام فى الطاعات التى يقتصر عليها المعتكف فى بيت من بيوت الله وذهبوا فى ذلك إلى رأيين :

---

(١) رواه أحمد ، والإمام مسلم .
(٢) أخرجه البخارى ، ومسلم وابن ماجه .
(٣) حزن : ما غلظ من الأرض .
(٤) سهوة : أرض لينة ملائمة.
(٥) رواه أحمد .

الرأى الأول :مذهب ابن القاسم القائل : إن المعتكف يقتصر على الصلاة والذكر وقراءة القرآن لا غير ذلك من أعمال البرّ والقرب .

الرأى الثانى :وقيل : جميع أعمال القرب والبر المختصّة بالآخرة ، وهو مذهب ابن وهب ، فعلى هذا المذهب يشهد الجنائز ويعود المرضى ويدرس العلم .

والذى أميل إليه هو مذهب ابن وهب؛ لأنه ما دام الإمام مالك رضى الله عنه يجيز للمعتكف البيع والشراء كما نقل عنه ابن رشد الحفيد : (وأجاز مالك له البيع والشراء وأن يلى عقد النكاح وخالفه غيره فى ذلك) (١) .فمن باب أولى خروجه لأعمال القرب المختلفة كقضائه لحوائج الناس والصلح بينهم وعيادة المريض منهم . .و. .و. .

وشفيعى فى هذا الميل ما رواه الطبرانىّ فى الأوسط والبيهقى بهذا اللفظ ، والحاكم عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه كان معتكفا فى مسجد رسول الله ﷺ فأتاه رجل فسلم عليه ثمّ جلس ، فقال له ابن عباس : يا فلان أراك مكتئبا حزينا، قال : نعم يا ابن عمّ رسول الله. لفلان علىّ حقّ ولاء (٢)، وحرمة صاحب هذا القبر(٣) ما أقدر عليه، قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ فقال: إن أحببْت؟ قال: فانتعل ابن عباس، ثم خرج من المسجد فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا، ولكنى سمعت صاحب هذا القبر ﷺ، والعهد به قريب فدمعت عيناه وهو يقول: «من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يومْا ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد ممّا بين الخافقين ».

وفى الصحيحين : أنّ صفية بنت حيى كانت تزور النبىّ ﷺ وهو معتكف فى المسجد فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت لترجع إلى منزلها ، وكان ذلك ليلا ، فقام النبىّ ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها ، وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة ، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار ، فلمـّا رأيا النبىّ ﷺ أسرعا ــ وفى رواية : ــ تواريا ــ أى : حياءً من النبىّ ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما ﷺ : « على رسلكما إنّها صفيّة بنت حيى » ــ أى : لا تُسْرعا واعلما أنها صفية بنت حيى زوجتى ــ فقالا : سبحان الله يا رسول الله !

فقال ﷺ : « إنّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدّم ، وإنّى خَشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا » أو قال : « شرّا » (٤) .

(١) بداية المجتهد ١ / ٢٣٢ .

(٢) ولاء : صحبة ومودّة ، ولكن بينهما خلاف وشقاق ، وهو حريص على إبقاء الأخوة .

(٣) رسول الله عليه الصلاة والسلام .

(٤) رواه البخارى ، ومسلم .

obeikandi.com

وقد فهم الحسن البصرى هذا الفهم حينما بعث قوما من أصحابه فى قضاء حاجة لرجل وقال لهم :مروا بثابت البنّانى فخذوه معكم ، فأتوا ثابتا فتعلل بالاعتكاف ، فرجعوا إلى الحسن وأخبروه الخبر ، فقال :قولوا له : يا أعمش أما تعلم أن مشيك فى حاجة أخيك المسلم خير لك من حجّة بعد حجّة، فرجعوا إلى ثابت فأخبروه ، فترك اعتكافه وذهب معهم .

٣ــ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه » .

أولا : فضل القرآن :

ورد فى فضل القرآن الكثير من الأحاديث النبويّة الشريفة وكذا فى فضل تعلمه وتلاوته ، كما جاء الترهيب من عدم قراءته ونسيانه، فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »(١) .وجَاء فيه أيضا عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »(٢) .

وعن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأتْرجّة ريحها طيّب ، وطعمها طيّب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التّمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريْحانة ريحها طيّب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول اللّه ﷺ : «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإنّ منزلك عند آخر آية تقرؤها »(٤) . وعن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبّوة بين جنبيْه غير أنه لا يوحى إليه. لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله»(٥) . وفى الترهيب من نسيانه ورد عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«عرضت علىّ أجور أمّتى حتى القذاة يخرجُهَا الرجل من المسجد،وعرضت علىّ ذنوب أمّتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن،أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»(٦) .

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) رواه البخارى ، ومسلم،والنسائى ، وابن ماجه .
(٤) رواه الترمذى .
(٥) رواه الحاكم .
(٦) رواه أبو داود ، والترمذى وغيرهما .

ثانيا: آداب التلاوة :

ــ الطهارة : تجب الطهارة الكبرى للقراءة ، وتستحب الصغرى هذا بالنسبة للتلاوة عن ظهر قلب ، وأما حمل المصحف فيحرم على من فقد الطهارتين على حدّ سواء قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ [الواقعة : ٧٧ ــ ٧٩] وللحائض أن تقرأ القرآن الكريم بلا مسّ هذا إن لم ينقطع عنها الدّم ، فإذا انقطع تأتّى لها رفع المانع بالغسل ، ومن ثمّ تحرم عليها التلاوة إلى حين تغتسل .

ــ استحضار عظمة الخالق ؛ لأنه يتلو كلام المولى ــ عز وجل .

ــ الترتيل ، لقوله تعالى : ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾[المزمل : ٤] . قال ابن عبّاس رضى الله عنه: لأن أقرأ البقرة وآل عمران وأرتّلهما وأتدبرهما أحبّ إلىّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة(١) .

ــ تحسين الصوت وتزينه عند تلاوته عن البراء بن عازب رضى اللّه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « زيّنوا القرآن بأصواتكم » (٢) .

وعن ابن أبى مليكة قال : قال عبيد الله بن أبى يزيد ــ رضى الله عنهما ــ مرّ بنا أبو لبابة فاتّبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه ، فإذا رجل رثّ الهيئة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن» قال : فقلت لابن أبى مليكة: يا أبا محمّد : أرأيت إن لم يكن حسن الصّوت؟ قال: يحسّنه ما استطاع (٣).

ــ وعلى التالى أن يتدبّر فيما يتلو، وليستشعر أنّه المخاطب والمقصود ، قال الإمام ابن قدامة المقدسى فى كتابه (مختصر منهاج القاصدين) : (وينبغى لتالى القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه فى إيصال معانى كلامه إلى أفهامهم ، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ، ويتدبّر كلامه،فإنّ التدبّر هو المقصود من القراءة وإن لم يحصل التدبّر إلا بترداد الآية فليردّدها، فقد روى أبو ذّر رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قام ليلة بآية يردّدها ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ﴾ [المائدة : ١١٨] ، وقام تميم الدارى بآية وهى قوله: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [الجاثية : ٢١] . وكذلك قام بها الربيع بن خيثم ليلة .

وينبغى للتالى أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، ويتفهّم ذلك ، فإذا تلا قوله

---

(١) الهذرمة : هى السرعة فى القراءة والكلام .

(٢) رواه أبو داود ، والنسائى ،وابن ماجه.

(٣) رواه أبو داود .

تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [الأنعام : ١] فليعلم عظمته ويتلمّح قدرته فى كل ما يراه ، وإذا تلا ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٨] فليتفكر فى نطفة متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحم وعظم وعرق وعصب ، وأشكال مختلفة من رأس ويد ورجل ، ثم إلى ما ظهر منها من الصفات الشريفة كالسّمع والبصر والعقل ، وغير ذلك فليتأمّل هذه العجائب)(١) .

هذه بعض آداب التلاوة وقد أفاض فى ذكرها الإمام القرطبى فى الجزء الأوّل من تفسيره : (لا يمسّه القارئ إلا طاهرا ، وأن يقرأه وهوعلى طهارة، وأن يستاك، ويتخلل فيطيب فاه ، وأن يلبس كما يلبس للدخول على الأمير لأنه مناج ، وأن يستقبل القبلة لطهارته، وأن يتمضمض كلما تنخع ، وإذا تثاءب يمسك عن القراءة ؛ لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربّه ومناج ، والتّثاؤب من الشيطان ، وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرّجيم عند ابتدائه للقراءة ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ،وإذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة ، وأن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلامه فيخلطه بجوابه ، وأن يقرأه على تؤدة وترسل وترتيل ، وأن يستعمل ذهنه وفهمه حتّى يعقل ما يخاطب به ، وأن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه ، ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها ، ومن حرمته أن يلتمس غرائبه ، ومن حرمته أن يؤدّى لكل حرف حقّه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات ، ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربّه ، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ ويشهد على ذلك أنّه حقّ ، فيقول : صدقْت ربّنا وبلغت رُسلك ونحن على ذلك من الشّاهدين ، اللهّم اجعلنا من شهداء الحقّ القائمين بالقسط ، ثم يدعو بدعوات، وإذا قرأه لا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ : ــ أى يقرأ على السور ــ وإذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا ، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتىّ يكون أبدا عاليّا ، وأن يضعه فى حجره إذا قرأه ، أو على شىء بين يديه ، ولا يضعه بالأرض ، وألا يمحوه من اللوح بالبصاق، بل يغسل بالماء ، ويتوقّى النجاسات ؛ وكان السلف الصالح يستشفى بغسالته ، وألا يتّخذ الصحيفة وقاية للكتاب ، وألا يخلى يوما من أيّامه عن النظر فى المصحف مرة ، وأن يعطى عينيه حظها منه ، قال رسول الله ﷺ : « أعطوا أعينكم حظها من العبادة »، قالوا : يا رسول الله، وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه»، وألا يتأوّله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا، أى :إذا جاءك أحد فلا تقل : ﴿ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٤٠] أو﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

(١) مختصر منهاج القاصدين ، لابن قدامة المقدسى ص ٤٦ .

﴿ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] وألا يتلى منكوسا ، كفعل معلمى الصبيان، وألا يقعر فى قراءته ، وألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ، ولا نوح الرهبانيّة وأن يجلل تخطيطه إذا خطه ، وألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغض إليه ما يسمع كهيئة المغالية ، وألا يمارى أو يجادل فيه فى القراءات ، وألا يقرأ فى الأسواق ، ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن ، وأثنى عليهم بأنّهم إذا مرّوا باللغو مرّوا كراما هذا لمروره بنفسه فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء؟! وألا يتوسّد المصحف ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله ، وألا يصغر المصحف ــ مصيحف كمسيجد ــ وألا يخلط فيه ما ليس منه ، وألا يحلى بالذهب ، ولا يكتب بالذهب ، فتخلط به زينة الدنيا . قال ﷺ : «إذا زخرفت مساجدكم ، وحليت مصاحفكم فالدبار عليكم » : الدبار : الهلاك ، وألا يكتب على الأرض ، ولا على الحائط كما يفعل بهذه المساجد المحدثة .

مرّ رسول الله ﷺ بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هذيل: « ما هذا ؟» قال: من كتاب الله كتبه يهودىّ ، فقال ﷺ : « لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه » . ورأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه ، وأن يفتتحه كلمّا ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور كما كان ﷺ إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون فى هيئة المهجور ، ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله ــ أى دعا ــ وألا يكتب التعاويذ منه ،ثم يدخل فى الخلاء به إلا أن يكون فى غلاف من أدم ، أى : جلد أو فضة أو غيره فيكون كأنّه فى صدرك ، وإذا كتبه وشربه سمىّ الله تعالى على كل نفس وعظّم النية فيه ، فإن الله تعالى يعطيه على قدر نيّته ، وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب يس فى جام بزعفران ثم يشربه)[1] ا . هـ .

ثالثا : حكم القراءة جماعة :

الذى أثر فى هيئة قراءته ﷺ أنّه كان يأمر أحيانا من يقرأ القرآن ليسمع قراءته كما كان ابن مسعود يقرأ عليه، وقال: «إنى أحبّ أن أسمعه من غيرى» وكان عمر يأمر من يقرأ عليه وعلى أصحابه وهم يستمعون فتارة يأمر أبا موسى، وتارة يأمر عقبة بن عامر .

وعليه فاجتماع القوم فى قراءة سورة ما بصوت واحد أمر مخالف للسنّة وأنكره

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١ / ٢٦ .

أعلام الأمة ذكر ابن علان فى شرحه لهذا الحديث هيئة المدارسة ما نصّه : («ويتدارسونه بينهم » أى : يتوازعون دراسته ، والأولى فيها أن يقرأ الثانى ما قرأ الأوّل، قيل: إنه هكذا كانت مدارسة النبىّ ﷺ مع جبريل)(١) .

وقد فصّل الحكم فيها كل من أبى البركات أحمد الدردير فى شرحه الكبير لمصنّف أبى الضّياء خليل ، والعلامة شمس الدين الشيخ محمد عرفة الدسوقى فى حاشيته على الشرح المذكور آنفا :حيث ذكرا فى معرض الحديث عن سجود التّلاوة : (ككراهة قراءة جماعة يجتمعون فيقرؤون معا إن لم يؤدّ إلى تقطيع وإلا حرم) .

قوله: يجتمعون فيقرؤون معا ــ: (إنّما كرهت القراءة على هذا الوجه ؛لأنه خلاف العمل وللزوم تخليط بعضهم على بعض، وعدم إصغاء بعضهم لبعض وهو مكروه ، وأمّا اجتماع جماعة يقرأ واحد ربع حزب مثلا ، وآخر ما يليه وهكذا ، فذكر بعضهم الكراهة فى هذه الصّورة، ونقل النووى عن مالك جوازها قال : بن(٢) وهو الصواب إذ لا وجه للكراهة)(٣) .

وحكى ابن حجر فى فتحه الإجماع على الهيئة الفردية فى القراءة فقال :(نقل الإجماع استحباب سماع القرآن من ذى الصّوت الحسن ، وأخرج أبو داود من طريق ابن أبى مسجعة قال: كان عمر يقدّم الشّاب الحسن الصوت لحسن صوته بين يدى القوم)(٤) .

وليس للقائلين بالقراءة الجماعية دليل حيث يلجؤون إلى الأحاديث الواردة فى الذكر، أو إلى قول قائلهم : هذا ما درج عليه سلفنا منذ أزمنة بعيدة ولم ينكره علينا ناكر، ويحتجّون أيضا بالأوقاف التى أوقفها محبّسُوها على قراءة ــ الحزب ــ ولعمرى إن هذه الحجة الواهية هى ملاذ أرباب البدع والمنكرات فى أيّامنا هذه ، وليس فى الأمر جديد بل هذه قريش نفسها تحتّج بها ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

(ذكر حرب أنه رأى أهل دمشق ، وأهل حمص ، وأهل مكّة ، وأهل البصرة ، يجتمعون على القرآن بعد صلاة الصبْح ، ولكن أهل الشام يقرؤون القرآن كلهم جملة من سورة واحدة بأصوات عالية ، وأهل البصرة ،وأهل مكة يجتمعون فيقرأ أحدهم

(١) دليل الفالحين ٣ / ١٠٢ .
(٢) (بن) هو مختصر لاسم العلامة : محمد البنانى محشى الشيخ عبد الباقى الزرقانى .
(٣) حاشية الدسوقى ١ / ٣٠٨ ، مج ١ . (٤) فتح البارى ٩ / ٧٤ .

عشر آيات والنّاس ينصتون ، ثم يقرأ آخر عشر آيات حتى يفرغوا . قال حرب : وكل ذلك حسن جميل ، وقد أنكر مالك ذلك على أهل الشام ، قال زيد بن عبيد الله الدمشقى : قال لى مالك بن أنس : بلغنى أنكم تجلسون حلقا تقرؤون ، فأخبرته بما كان يفعل أصحابنا، فقال مالك : عندنا كان المهاجرون والأنصار ما نعرف هذا)(١) .

وفوق كل هذا ، فالذين يجتمعون للقراءة لا يتدارسونه غالبا ولا يتفهّمونه ، وأنّى لهم ذلك وقراءتهم فى كثير من الأحيان هذرمة !

رابعا : حكم الاجتماع على القراءة بعد صلاة الصبح :

روى حرب الكرمانى بإسناده عن الأوزاعى أنه سئل عن الدراسة بعد صلاة الصبح فقال : أخبرنى حسان بن عطية أن أوّل منْ أحدثها فى مسجد دمشق هشام بن إسماعيل المخزومى فى خلافة عبد الملك بن مروان فأخذ الناس بذلك .

وقال أبو مصعب وإسحاق بن محمد القروى: سمعنا مالك بن أنس يقول: الاجتماع بكرة بعد صلاة الصبح لقراءة القرآن بدعة ، ما كان أصحاب رسول الله ﷺ ولا العلماء بعدهم على هذا ، كانوا إذا صلوا يخلو كل بنفسه، ويقرأ ويذكرالله تعالى، ثم ينصرفون من غير أن يكلم بعضهم بعضا اشتغالا بذكر اللّه فهذه كلها محدثة.

خامسا : حكم القراءة فى الأماكن المختلفة :

« وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله » خصّ النبى ﷺ ذكر المساجد هنا لا على سبيل التقييد ،لكنّه خرج مخرج الغالب لشرفها وعلوّ قدرها ، والعبادة فيها أفضل من غيرها.

ولا بأس أن ننقل هنا من محاضرة العلامة الشيخ محمّد بخيت المطيعى ــ مفتى الديار المصرية سابقا ــ جانبا من حديثه عن الأماكن التى يتنزه القارئ فيها عن القراءة ، نقول : إذا صدرت تلك الكلمات القرآنية بواسطة الراديو دون خلل فى القراءة ، ومع مراعاة أحكام التجويد ، ولو لم يقصد القارئ التعبّد بتلاوتها ، وإسماعها للعظة والاعتبار والتدبّر ؛ وفى محل غير ممتهن فلا شك فى الجواز ، وفى أن كلا من القراءة والسماع عبادة ؛ أما إذا اختلت حروف تلك الكلمات ولم تصدر مستوفية لما ذكرناه، أو قصد بقراءتها وإسماعها اللهو واللعب، والعبث والتلهّى مثلا، أو كانت فى محل ممتهن كالخمّارات والقهاوى ، وأماكن الرقص ، ومواضع الملاهى ، وفى كل موطن لا يليق قراءة القرآن فيه ولا سماعه ، فلا شك فى منع ذلك وعدم جوازه ؛ لأنّ ذلك

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٢٥ .

استهزاء وإخلال بكلمات اللّه جل شأنه) (١) .

سادسا : حكم القراءة على الأموات :

اختلف الفقهاء فى حكم القراءة على الأموات ووصول ثوابها ــ إذا لم يخرج مخرج الدعاء ــ وسنعرض رأى كل فريق وأدلته التى اعتمد عليها ، وسيزهق الحقّ الباطل :

أولا : أدلة القائلين بالجواز :

(. . . وقال الإمام أحمد وبعض المالكية ، وبعض الحنفية ، وبعض الشافعية : إنّ القراءة مشروعة على الأموات وينتفعون بها لعموم الحديث ، ولعمل الأمّة الآن) ، وهذا هو الظاهر الذى ينبغى الاعتماد عليه للأمور الآتية :

١ ــ أن لفظ موتى فى الحديث نص فيمن مات فعلا ، وتناوله للحى المحتضر مجاز ولا يأتى المجاز إلا بقرينة ولا قرينة هنا .

٢ ــ أن من حكم القراءة التخفيف وهو كما يطلب للمحتضر يطلب للميت .

٣ ــ القياس على القراءة الفاتحة فى صلاة الجنازة الآتية ، وإلا كان تحكّما .

٤ ــ القياس على السلام المطلوب للموتى فى زيارة القبور الآتية ، فإذا كان الميّت يأنس بالسّلام الذى هو من كلا البشر ،فكيف لا يأنس ويسر بكلام الرحمن جل شأنه؟!

٥ ــ أن السكينة والرحمة ينزلان فى محل قراءة القرآن والميّت والمحتضر بل كل مخلوق فى أشد الحاجة إلى رحمة اللّه تعالى (٢) .

وقبل أن نناقش هذه الأدلة يتحتم علينا ــ من قبل الأمانة العلمية ــ أن نورد الأدلة التى يستند عليها أصحاب هذا الرأى من الفقهاء ، جاء فى تعليق للدردير ى ــ رحمه الله ــ أثناء شرحه للمكروهات فى أحكام الجنائز ما نصّه : (لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل ثوابه للميت ويحصل له الأجر إن شاء الله وهو مذهب الصالحين من أهل الكشف) (٣) .

وينحُو المحشى نفسه ــ الدسوقى ــ هذا المنحى فيقول : (تنبيه : قال فى التوضيح فى باب الحج : المذهب أن القراءة لا تصل للميّت حكاه القرافى فى قواعده ، والشيخ ابن أبى جمرة) . ا . هـ .

---

(١) الترغيب والترهيب ٢ / ٣٩١ .

(٢) التاج الجامع للأصول ١ / ٣٤٠ ، ط : دار الفكر.

(٣) حاشية الدسوقى ١ / ٤٢٣ .

وفيها ثلاثة أقوال : تصل مطلقا ، لا تصل مطلقا ، والثالث : إن كانت عند القبر وصلت وإلا فلا .

وفى آخر نوازل ابن رشد فى السؤال عن قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] قال : وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذلك وحصل للميت أجره . ا . هـ .

وقال ابن هلال فى نوازله : الذى أفتى به ابن رشد ، وذهب إليه غير واحد من أئمتنا الأندلسيين : أن الميت ينتفع بقراءة القرآن الكريم ويصل إليه نفعه ويحصل له أجره إذا وهب القارئ ثوابه له ، وبه جرى عمل المسلمين شرقا وغربا ، ووقفوا على ذلك أوقافا واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة ثم قال : ومن اللطائف أن عزّ الدّين بن عبد السلام الشافعى رؤى فى المنام بعد موته فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى ؟ فقال : هيهات وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن . ا . هـ .

مناقشة أدلتهم :

١ ــ لفظ الميت الوارد فى الحديث المشار إليه فى الحديث السابق مجاز ؛ قرينته الحالية : الاحتضار والحشرجة ــ فصاحبها آيل إليه لا محالة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠ ، ٣١] .

٢ ــ ينكرون أنّ المراد بالقراءة على الموتى هو : ــ المحتضر ــ ثم يستدلون على جواز طلب التخفيف على الميت بمشروعية التّخفيف على المحتضر ؛ ويكون هذا بقراءة «يس » .

إذًا فينقضون ما بنوه بأنفسهم من جهة ، ومن جهة أخرى يتأولون لفظ الموتى خلاف تفسير شراح الحديث وأنّى لهم هذا التمحل !

٣ ــ القياس على الفاتحة باطل من وجوه ؛ لأن القراءة فى الصلاة ــ أى صلاة الجنازة ــ لم تسلم هى الأخرى من الخلاف ، وهى لصحة الصلاة مراعاة للحديث : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (١) . لا للميت نفسه فتدبّر .

٤ ــ والقياس على السلام باطل .

ومن عادة أهل البدع والأهواء تأصيل أصول خاصة بهم لا يقرها ذو عقل بله عن

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم وغيرهما .

صاحب علم ؛ فمن ذلك قولهم :

أ ــ ما جرى به العمل منذ أزمنة سالفة !

ب ــ الرؤى المنامية ، كاستدلالهم هنا برؤية العز بن عبد السلام ــ رحمه الله .

جـ ــ مذهب الصالحين من أهل الكشف : يا غوثاه ؟ !

ثانيا : القائلون بالكراهة :

أهل السلف أن القراءة على الميّت ليست مشروعة ، وهذا هو ظاهر كلام مالك ، والشافعى وغيرهما ، ويذهب أصحاب هذا الرأى فى تفسير الحديث النبوى الشريف المروى عن معقل بن يسار عن النبىّ ﷺ قال : « اقرؤوا يس على موتاكم » (١) . إلى أن المقصود من لفظ : « موتاكم » الذين حضرهم الموت ، وذلك ليستأنسوا بما جاء فيها من ذكر اللّه ، وأحوال البعث والقيامة والجنّة والنّار وما اشتملتْ عليه ، والتحذير من فتنة الشيطان .

والقراءة على الأموات ليست من السّنة فى شىء ، ولا عمل الصحابة الكرام وسلف هذه الأمّة من الأعلام ، وإنما الذى أثر فعله هو الدعاء والاستغفار لهم قال تعالى مؤدّبا الأبناء : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] . وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].

وهذا رسولنا عليه الصلاة والسّلام يعلمنا الدعاء للأموات عن طريق أم سلمة ــ رضى الله عنها حيث قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا حضرتم المريض أو الميّت فقولوا خيرا ، فإن الملائكة يؤمّنون على ما تقولون » قالت : فلمّا مات أبو سلمة أتيت النبىّ ﷺ فقلت : يا رسول الله إنّ سلمة قد مات قال : « قولى : اللهمّ اغفر لى وله، واعقبنى منه عقبى حسنة » قالت : فقلت فأعقبنى الله من هو خير لى منه محمدًا ﷺ(٢).

وعن عثمان بن عفّان رضى اللّه عنه قال : كان رسول اللّه ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » (٣) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع

(١) رواه أبو داود ، والنسائى ، وأحمد ، وابن ماجه وصححه .

(٢) رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجه ، والنسائى .

(٣) رواه أبو داود .

عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع له ، أو ولد صالح يدعو له » (١) .

ويعلمنا ﷺ ما نقوله عند زيارة القبور، فعن سليمان بن بريدة عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن النبىّ ﷺ قال : « أتانى جبريل فقال : إن ربّك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم » ، قالت : قلت : كيف أقول لهم يا رسول الله ؟ قال : « قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنا إن شاء اللّه بكم للاحقون » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن النّبى ﷺ أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون » (٣) .

وعن سعد بن عبادة رضى اللّه عنه أنه قال : يا رسول اللّه ، إن أمّ سعد ماتت فأىّ الصدقة أفضل ؟ قال : « الماء » ، قال : فحفر بئرا وقال : هذه لأم سعد (٤) .

هذه الأحاديث وغيرها تدل ــ بما لا يدع للشك مجالا ــ على أنّ قراءة القرآن على الأموات ليست من عمل السلف الذين هم أجْدرُ بالاتباع من الخلف .

ودلّت أيضا على أن الدعاء بالألفاظ الواردة فى القرآن والسّنة هو العمل الذى لا خلاف بين رجال المذهب فى وصول ثوابه إلى الميت ، بعكس القراءة التى لم تسلم من الخلاف ، قال أبو الضياء خليل بن إسحاق المالكى فى مختصره فى باب الجنائز : وكره حلق شعره ، وقلم ظفره وهو بدعة . . . . ــ إلى قوله ــ : . . . . وقراءة عند موته كتجمير الدار وبعده وعلى قبره .

قوله : لأنه ليس من عمل السلف ، أى : فقد كان عملهم التصدّق ، والدعاء لا القراءة .

ونصّ المصنف فى التوضيح فى باب الحج على أن مذهب مالك كراهة القراءة على القبور ، ونقله ابن أبى جمرة فى شرحه على مختصر البخارىّ قال : لأنا مكلفون بالتفكر فيما قيل لهم وماذا لقوا ومكلفون بالتدبّر فى القرآن فآل الأمر إلى إسقاط أحد العملين.ا . هـ . وهذا صريح فى الكراهة مطلقا (٥) .ولم يقف الأمر عند قراءة «يس» وحدها على الأموات فى عصرنا الحاضر ، بل اقترنت القراءة ببدع كثيرة ؛ كاجتماعهم للقراءة بأصوات مرتفعة ومتفاوتة على سبيل القراءة الجماعية التى سبق حكمها آنفا ،

---

(١)رواه مسلم .
(٢)رواه مسلم .
(٣)رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى .
(٤)رواه أبو داود، وأحمد، والنسائى.
(٥)حاشية الدسوقى على الدردير ى ٢ / ٤٢٣ .

وقد تكون بأثمان وأجور يتعارفون عليها إن لم يشترطوها ، ولله درّ سفيان بن عيينة حين روى هذا الأثر فقال : بلغنا عن ابن عباس أنّه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بحقّه وما ينبغى لأحبّهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على النّاس . وجاء فى (بلغة السالك لأقرب المسالك) للشيخ أحمد الصّاوى على شرح سيدى أحمد الدردير فى الصفحة الثانية والأربعين بعد المائة من الجزء الأوّل ما نصّه : أمّا قراءة القرآن على الأبْواب وفى الطرق قصدا لطلب الدنيا فحرام ، ولا يجوز الإعطاء لفاعل ذلك لما فيه من الإعانة على المحرّم ، لا سيما فى مواضع الأقدار فكادت أن تكون كفرا، والرضا بها من أولى الأمر ضلال مبين (١) .

سابعا : التداوى بالقرآن :

التداوى بالقرآن ، أو ما يسمى ــ بالرقى ــ جمع رقية ، أمر جائز بشروط ، وقد حكى الإجماع بالجواز ابن حجر فى فتحه فقال : أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط : أن يكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه أو بصفاته ، وباللسان العربى ، أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير اللّه تعالى . ولا يجوز الاسترقاء بغير القرآن الكريم ، أو بغير ما أثر عن النبىّ عليه الصلاة والسّلام من الأدعية الصحيحة ، ولا تعارض بين هذا وبين الأثر الذى ورد فى وصف أهل الجنّة : « لا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكّلون » وذلك لسببين اثنين :

ــ لأن المسترقى بالقرآن الكريم مسترق بكلامه تعالى ، ومن ثمّ فلا يرجو رفع البأس وجلب الشفاء إلا من اللّه تعالى .

ــ ثمّ إن الوصف الذى ورد ربّما يختّص بالذين لا يأمَنُونَ على أنفسهم إن فعلوا ذلك من الركون إلى الأسباب والاعتماد عليها ، أو هو وصف ــ ربمّا ــ لمن كمل إيمانهم وصدق توكّلهم على ربّهم (٢) .

وقد ثبت عن رسول اللّه ﷺ أنّه كان يسترقى بسُور من القرآن الكريم، فعن عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ قالت: كان رسول اللّه ﷺ إذا مرض أحدٌ من أهله نفث عليه بالمعوذات(٣). وعن أبى سعيد رضى اللّه عنه أن رهطا من أصحاب النبى ﷺ انطلقوا فى سفرة سافروها حتى نزلوا بحىّ من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم.

---

(١) نعم قد لا ينطبق هذا على كثير من القراء .

(٢) قد يبدو التعارض أيضا بين هذا التعليل وبين تداوى النبى ﷺ واسترقائه وأمره بهما ، ولكن كان ذلك منه لبيان الجواز والتشريع لأمته .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

فلدغ سيّد ذلك الحى فسعوا له بكل شىء لا ينفعه فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرّهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شىء ، فأتوْهم فقالوا : إنّ سيّدنا لدغ فسعينا له بكل شىء فلم ينفعه فهل عند أحد منكم شىء ؟ فقال بعضهم : نعم إنّى واللّه لراق ، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيّفونا فما أنا براق لكم حتىّ تجعلوا لنا جعلا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق فجعل يتْفل عليه ويقرأ : ﴿ الْحمْدُ للَّه رَبّ الْعَالمين ﴾ [سورة الفاتحة] ، فكأنّما نشط من عقال فانطلق يمشى ما به قَلَبَة ، قال : فأوْفَوْهُم جُعْلهم الذى صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى رسول اللّه ﷺ فنذكر له الذى كان فننظر ما يأمرنا ، فقدموا على رسول اللّه ﷺ فذكروا له فقال : « وما يدريك أنّها رُقية ؟ أصبتم اقْسموا واضربوا لى معكم بسهم» (١) .

النفسية :

كرب الدنيا ومصائبها كثيرة ، وما من فترة تمرّ على الإنسان إلا وهى حبْلى بالمكاره تتعاقبه فيها سنن الحياة من موت ، وولادة ومرض ، وفقر وعنت وشقاء ، والتى لا يختلف فى شدتها وحدة آلامها غنى على فقير ، أو مأمور على أمير ولا حتى بين المسلم وغيره ، قال تعالى : ﴿ وَلا تَهنُوا في ابْتغَاء الْقَوْم إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ منَ اللَّه مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَليمًا حَكيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .

إذًا هنا يكمن الاختلاف ،أى: فى التلقى،وفى الأثر الذى يحدثه الكرب ، والنتيجة التى يرقبها صاحبه ؛ فيؤدى الابتلاء بالمنافق أو من على شاكلته إلى الضجر والملل ، ثم إلى اليأس والقنوط . . وربّما إلى الانتحار ! والواقع الغربى على ما أقول شهيد .

ويرتفع الابتلاء نفسه بالمحتسبين الصابرين إلى أعلى عليّين أرأيت أن المصيبة الواحدة تجعل أقواما فى أسفل الدركات ، وآخرين فى قمّة الدّرجات ؟ !

إنها معجزة الإيمان وهل الإيمان الكامل إلا الصبر فى أتم معانيه ، والصبْر أنجع علاج نفسانى على الإطلاق !

ـ قال تعالى: ﴿وَاسْتَعينُوا بالصَّبْر وَالصَّلاة وَإنَّها لَكَبيرَةٌ إلاَّ عَلَى الْخَاشعينَ﴾[البقرة:٤٥].

وليصبر المبتلى عليه أن يعرف لماذا يصبر ، وما النتيجة المشجعة له والتى تستحّق التضحيات ، وتستحق منه أيضا أن يوّجه فكره ومشاعره وأحساسيه تشوّقا إليها

(١) رواه البخارى ، ومسلم وغيرهما .

وانتظارا لنيلها :

١ ــ عليه أن يدرك الفارق الكبير بين كربته وبين كرب يوم القيامة التى تفوق أىّ تحجيم وتعدو التصوّر البشرى وله فى هذا خير العزاء .

٢ ــ وليعلم أن هناك من هو أشد منه حرجا وضيقا وأكثر ألما وشقاء .

٣ ــ وليدرك أن الموت ليس هو الخلاص ممّا يقاسيه ويحاذره ، فلا يدعو على نفسه بالهلاك ؛ لأنه لا يدرى مصيره مع أهوال الأخرى .

٤ ــ وليطمئن إلى أنه لم يبتل بما ابتلى به إلا لأن ربّه يحبّه ليغفر زلته أو ليرفع درجته .

فعن أنس رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللّه تعالى إذا أحبّ قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط»(١).

٥ ــ وليجعل جزاء الصبر نصب عينيه قال تعالى فى فضل الصابرين : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر : ١٠] ، ﴿ **أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ [القصص : ٥٤] ، ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦] ، ﴿ **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٥] .

ولله در القائل :

إن الأمــور إذا اشـتـدت مسالـكهـا فالصبْر يفتح منها كل مـا ارتجـا
لا تيـأسـن وإن طـالـت مطـالبـه إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبْر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

الاجتماعية :

١ ــ « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ..... واللّه فى عون العبد..... » .

يقوم المجتمع الإسلامى على التكافل والتكامل تحقيقا لمبدأ ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة : ٢] حيث يعول غنيه فقيره ، ويرحم

(١) رواه ابن ماجه ، والترمذى .

فيه كبيره صغيره، ويوقر صغيره كبيره ، وجاهله عالمه ، والمصاب فى المجتمع الإسلامى مواسى، والمكروب مفرّج عنه . تلك هى مبادئ الإسلام التى حققها فى مجتمع المدينة وترجمها إلى واقع معاش وحقيقة ملموسة ، ولم تكن أبدا محض خيال كأحلام أفلاطون فى مدينته الفاضلة ، أو كارل ماركس فى نظريته المتهافتة .

بل ها هو الرسول ﷺ نفسه يتكفّل بأعمال ربّما ازدراها تكبرا بعض السّاسة والقادة، من ذلك ما رواه أحمد :

أن خباب بن الأرت رضى الله عنه خرج فى سرية وكان له عنز فكان ﷺ يحلبها لعياله حتى قدم .

وسار على نهجه ــ عليه السلام ــ خلفاؤه من بعده ، فهذا أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه كان يحلب للحىّ أغنامهم وذلك قبل توليه الخلافة فلما قلدّها قيل : الآن لا يحلبها فبلغه ذلك ، فقال : إنّى لأرجو ألا يغيّرنى ما دخلت فيه عن شىء كنت أفعله. ورأى طلحة عمر بن الخطاب زمن خلافته يدخل بالليل بيت امرأة فدخل إليها طلحة نهارا ، فإذا هى عجوز عمياء مقعدة ، فسألها : ما يصنع هذا الرجل عندك ؟

قالت : هذا مذْ كذا وكذا يتعاهدنى يأتينى بما يصلحنى ، ويخرج عنى الأذى فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعورات عمر تتبع ؟ !

وقال أبو مجاهد : صحبت ابن عمر فى السّفر لأخدمه فكان يخدمنى ،وفى الصحيحين عن أنس قال : كنّا مع النبىّ ﷺ فى السّفر فمنّا الصائم ومنّا المفطر قال : فنزلنا منزلا فى يوم حارّ أكثرنا ظلا صاحب الكساء، ومنّا من يتقى الشمس بيده، قال: فسقط الصوّام وقام المفطرون وضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول اللّه ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر » .وعن أبى قلابة أنّ ناسا من أصحاب النبى ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيرا ، قالوا : ما رأينا مثل فلان هذا قط ما كان فى مسير إلا كان فى قراءة ، ولا نزلنا فى منزل إلا كان فى صلاة ، قال : فمن كان يكفيه ضيعته(١)؟ حتى ذكر ، ومن كان يعلف جمله أو دابته ؟ قالوا : نحن ، قال : «فكلكم خير منه»(٢) .

٢ ــ الإسلام أحْرَصُ الشرائع على حفظ إنسانية الإنسان وشرفه وكرامته ،ولصيانة ذلك شرع أحكاما وحدودا سبق وأن أشرنا إليها ، وتوعّد الساعين إلى كشف عورات الناس بالعذاب الأليم فى الأخرى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ

(١) أى يقوم بإصلاح أرضه .

(٢) أخرجه أبو داود .

﴿ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ١٩] .

وعن أبى برزة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنّه من اتّبع عوراتهم تتبّع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه فى بيته » (١) .

فالمجتمع الإسلامى مجتمع نظيف طاهر، مجتمع يسعى إلى إرساء الفضيلة وطمس معالم الرذيلة، ويحافظ على شعور أفراده وأحاسيسهم، فلا يتعرّض لإحراجهم وإبداء مساوئهم وأغلاطهم بل يسْدل عليها ستارا ، ويفرض عليها حصارا ما دامت الخطيئة بين المخطئ وربّه لا تتعلق بحقوق الآخرين ، وما دام مرتكبها من الذين لم يشتهروا ويجاهروا بها وما دام الأمر لا يتعلق بشهادة أو رواية .

إذًا فالستر يكون على مستورى الحال الذين لم يعرفوا بشىء من المعاصى وزلوا زلة مّا، جاء فى الحديث عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ : « أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم»(٢) . قال بعض الوزراء الصّالحين لبعض من يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصَاة ، فإنّ ظهور معاصيهم عيب فى أهل الإسلام .

وجاء ماعزٌ إلى النبىّ ﷺ فأقرّ عنده بالزنا أربع مرّات فأمر برجمه وقال لهزّال الذى أشار عليه بالاعتراف : « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » (٣) .

٣ ــ والسترلا يكون على أهل الفسق والفجور بل تجب محاربتهم ؛ لأن الإسلام دين الطهارة والعفّة فلا يرضى بالفحش والخنا ، ودين الأمانة والصدق فلا يرضى بالكذب والخيانة ، ودين العدل فلا يرضى بالظلم والجور ، قال تعالى فى وصف المؤمنين :﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ووصف المنافقين قبل هذا فقال : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة : ٦٧] .

إذًا (من كان مشتهرا بالمعاصى معلنا بها ولا يبالى بما ارتكب منها ولا بما قيل له، هذا هو الفاجر المعلن ، وليس له غيبة كما نصّ على ذلك الحسن البصرى وغيره ، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره لتقام عليه الحدود ، وصرح بذلك بعض أصحابنا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود .
(٢) أخرجه أبو داود ، والنسائى .
(٣) رواه أبو داود ، والنسائى .

واستدل بقول النبىّ ﷺ : «واغْدُ يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» (١).

٤ ــ من نافلة القول أن نشير ــ استنباطا من قوله ﷺ : «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ــ إلى أن النسب لا يرفع من الكسالى الخاملين على حساب العاملين، ولا يقوم أبدا مقام العدل أو الأمانة أو الصدق فى تقييم الرّجال عند إسناد المهام لهم ، ولا يقدّم الرّجل إلى مراكز القيادة ومواضع الريادة نسبُه ودمه وعرقه وقرابته لأولى الأمر ومصاهرته إيّاهم طبقا للقاعدة الأساسية فى الإسلام : الناس سواسية كأسنان المشط ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ولذا تسقط يوم القيامة جميع الروابط العرقية ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس : ٣٤ ــ ٣٧] ،﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] : «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من اللّه شيئا، يا عبّاس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة النبىّ ﷺ لا أغنى عنك من اللّه شيئا، يا فاطمة بنت محمّد سلينى ما شئت لا أغنى عنك من اللّه شيئا»(٢).

الثقافية :

« ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما » .

لم يهتم نظام ولا شريعة بالعلم اهتمام الإسلام به ويكفى أن أوّل كلمة من السّماء تطرق مسامع النبىّ ﷺ هى كلمة : اقرأ ، ويكفى أيضا أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى أقسم بالكتابة وأدواتها وسمّى سورة بأكملها باسم «القلم » الأداة الأساسية للكتابة، قال تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم : ١] . وجاء فى فضل العلماء الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة والآيات القرآنية المنزّلة منها قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩ ــ ٢٢]، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ،كما ورد فى فضل طلب العلم والسّفر إليه والتماسه من أهله الكثير أيضا ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٢١ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم .

الذكر إن كُنتُمْ لا تعلَمُون ﴾[النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧] .

ولما وردَ أنّ الخارج لطلب العلم تحتفل به ملائكة الرحمن ، فعن زرّ بن حبيش قال: أتيتُ صفوان بنَ عسّال المرادىّ رضى الله عنه قال : ما جاء بك ؟ قلت : أنبط العلم (١)، قال : فإنّى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع » (٢) .

وعن أبى أمامة عن النبىّ ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تامّا حجته » (٣) .

وعن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتىّ يرجع » (٤) . وعن أبى الدرداء قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من غدا يريد العلم يتعلمه لله ، فتح الله له بابا إلى الجنّة ، وفرشت له الملائكة أكتافها ، وصلت عليه ملائكة السموات وحيتان البحر ، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب فى السماء ، والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظه ، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسدّ، وهو نجم طمس، موت قبيلة أيسر من موت عالم» (٥).

ولخطورة العلم فى بقاء المجتمعات بيّن الإسلام دور العلماء باعتبارهم المصابيح التى تشع على السالكين دروبهم . ففى المسند عن أنس عن النبىّ ﷺ قال : « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النّجوم فى السماء يهتدى بها فى ظلمات البرّ والبحر ، فإذا انطمست النّجوم أوشك أن تضل الهداة » ، وكما فى الصحيحين عن عبد اللّه بن عمرو عن النبىّ ﷺ قال : « إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ النّاس رؤساء جُهّالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

والعلم الذى يرحل طالبه إليه علمان :علمٌ دينى ، وعلم دنيوىّ وكلاهما موصل إلى الله تعالى إن أخْلص صاحبه النّية ، وعلى ذكر النيّة فإنّى أميل إلى تقسيم آخر يقوم عليها :

١ ــ علم غاية طالبه دينية .

٢ ــ علم غاية طالبه دنيوية .

---

(١) أنبط العلم : أطلبه وأستخرجه .
(٢) رواه الترمذى وصححه .
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير .
(٤) رواه الترمذى .
(٥) رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه، وليس عندهم: « موت العالم . . . . » إلى آخره .

obeikandi.com

فما كانت غاية صاحبه دينية فهو المعرف بالله تعالى الهادى إلى سبيله سواء كان فهما لآية منزّلة من القرآن الكريم، أو تدبّرا وتفكرا فى آية كونية لمعرفة دقائق صنع الله فى كونه، ومعجزاته فى خلقه من كواكب ضخمة تسير وفق مسار ونظام دقيق وتوقيت لا تأخير فيه ولا تقديم ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس : ٤٠] .

وكذا التدبّر فى سنن اللّه التى قال عنها سبحانه: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر : ٤٣] . . . . إلخ الآيات القرآنية العديدة التى يضيق المقام بذكرها ونحن فى حل من استعراضها هنا كلها .

وأمّا العلم الذى يطلب به صاحبه أمرا دنيويّا ويسعى به لتحقيق مأرب مادى فلا يناله من الفضل والجزاء شيء .

وشفيعى فى هذا التقسيم حديث رسول اللّه ﷺ الذى رواه أبو هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « من تعلم علما ممّا يبتغى به وجْه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » (١) .

وعن كعب بن مالك عن النبىّ ﷺ قال : « من طلب العلم ليجارى به العلماء أو ليمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النّار » (٢) .

التربوية :

١ ــ « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما . . . . وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله » .

لا بأس أن نورد ولو على سبيل الإشارة طرفا من آداب المعلم والمتعلم فى الإسلام وجدوى هذه الآداب .

إنّ التّاريخ يحدّثنا أن قانون التعليم عند اليونانيّين بلغ فى صرامته حدّ الإعدام لكل من يدخل بيت المدْرَاس (٣) دون استئذان، فلا عجب إذًا أن تلد اليونان سقراط، وفيثاغورس، وأفلاطون وأبيقور ، وغيرهم !

وهذه الآداب الإسلامية فى طلب العلم أو تعليمه تثمر رجالا عمالقة بل موسوعات علمية لا قبل للحضارات الأخرى أن تلد مثلهم ، هؤلاء الذين بنوا حضارة إسلامية مزدهرة عمّرت قرونا طويلة ولا زال العالم المتقدّم اليوم يعود إلى رصيدها .

(١ ، ٢) رواهما أبو داود وابن ماجه . (٣) التدريس .

إذًا من هذه الآداب :

آداب المتعلم :

أ ــ أن يتطهّر الطهارة الخارجية والطهارة المعنوية بأن يطهر نفسه من الرذائل وأن يخْلص فى نيته؛ لأنه فى عبادة ، ولله درّ الإمام الشافعىّ حين قال :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نور ونور الله لا يعطى لعاصى

ب ــ وينبغى له قطع العلائق الشاغلة ،فإنّ الفكرة متى توزّعت قصرت عن إدراك الحقائق ،وقد كان السّلف يؤثرون العلم على كل شىء،فروى عن الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ أنه لم يتزوّج إلا بعد الأربعين ، وأهديت إلى أبى بكر بن الأنبارى جارية ، فلمّا دخلت عليه تفكر فى استخراج مسألة، فعزبت عنه ،فقال : أخرجوها إلى النّخاس ، فقالت : هل لى من ذنب؟ قال : لا ، إلا أن قلبى اشتغل بك ، وما قدر مِثلك أن يمنعنى علمى !

جـ ــ وعلى المتعلم أن يلقى زمامه إلى المعلم إلقاء المريض زمامه إلى الطبيب فيتواضع له ، ويبالغ فى خدمته إن كان من أهل الصلاح .

فقد كان ابن عباس يأخذ بركاب زيد بن ثابت ــ رضى الله عنهما ــ ويقول : (هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء) (١) .

وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمون منه » (٢) .

وقد أجمل الإمام على رضى الله عنه آداب المتعلم فقال : إنّ من حقّ العالم عليك أن تسلم على القوم عامة ، وتخصّه بالتحيّة وأن تجلس أمامه ، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمز بعينك ، ولا تكثر عليه السؤال ، ولا تعينه فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تراجعه إذا امتنع ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سرًا ، ولا تغتابنّ عنده أحدا ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، ولا تقولن له : سمعت فلانا يقول كذا ، ولا أن فلانا يقول خلافك، ولا تصفن عنده عالما ، ولا تعرضنّ من طول صحبته ، ولا ترفع نفسك عن خدمته ، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شىء .

---

(١) جاء هذا فى مختصر منهاج القاصدين ص ١٤ .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(وحكى عن أبى الضياء خليل بن إسحاق صاحب المختصر أنه جاء يوما لمنزل بعض شيوخه فوجد كنيف المنزل مفتوحا ولم يجد الشيخ هناك فسأل عنه فقيل له : إنه يشوّشه أمر هذا الكنيف ، فذهب يطلب من يستأجره على تنقيته فقال خليل : أنا أولى بتنقيته فشمّر ونزل ينقيه ، وجاء الشيخ فوجده على تلك الحال والناس قد حلقوا عليه ينظرون إليه تعجّبا من فعله فقال الشيخ : من هذا ؟

قالوا : خليل فاستعظم الشيخ ذلك وبالغ فى الدعاء له على قريحة ونية صادقة فنال ببركة دعائه ووضع الله تعالى البركة فى عمره) (١) .

آداب المعلم :

أ ــ أن يخاطب طلابه بما يفهمون فيتخير الألفاظ الواضحة الخالية من التعقيد ، ويمثل للمعانى المجردة بأمثلة تقريبية ، فعن على رضى الله عنه : « حدثوا النّاس بما يفهمون أتحبّون أن يكذّب الله ورسوله (٢) .

وانظر إلى حرص النبىّ ﷺ على إفهام صحابته ، فعن أنس عن النبى ﷺ ؛ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم منه (٣) .

ب ــ أن يجْنح إلى التيسير والتبشير ، فعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: « يسّروا ولا تعسروا ، وبشّروا ولا تنفروا » (٤) .

جـ ــ وعليه التثبت مما يقول بالرجوع إلى الأمهات والمصادر لئلا يغرس فى أذهان طلابه الأخطاء الفاحشة ، والأكاذيب الملفقة قال أنس : إنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثا كثيرا أن النبىّ ﷺ قال : « من تعمّد علىّ كذبا فليتبوّأ مقعده من النار » (٥) .

د ــ وعليه أن يختار الوقت المناسب الذى يكون فيه لعلمه أكبر الأثر حتى تتجمع الأذهان ، وتخلو القلوب من الشواغل ، وتنشرح النفوس ؛ لأنه ــ أى المعلم ــ كالفلاح الذى يترقب المواسم ليزرع بذور كل موسم فى حينها ثم يتعهدها بالسقى بانتظام فإن هو أخَل بهذه الشروط لا يجنى زرعا ولا يقطف ثمرا .

وكذلك الحال بالنسبة للمعلم، عن أبى وائل قال : كان عبد اللّه ــ يعنى ابن مسعود ــ يذكّر النّاس فى كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنّك ذكّرتنا كل يوم ، قال : أما إنّه يمنعنى من ذلك أنّى أكره أن أملكم وإنّى أتخولكم بالموعظة كما كان النبىّ ﷺ يتخوّلنا بها مخافة السامة علينا (٦) .

---

(١) جاء هذا فى المختصر .
(٢) أخرجه البخارى .
(٣) رواه البخارى ، وأبو داود .
(٤) رواه الشيخان .
(٥) رواه البخارى ، ومسلم .
(٦) رواه الشيخان ، والترمذى .

هـ ــ وعليه ألا يدّخر جهدا فى إخلاص نصحهم وإرشادهم إلى مفاتيح العلم ومواطن الصواب ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه »(١) .

و ــ وأنْ يحسن إلى من يعلمهم ويلاطفهم وكأنّهم أبناؤه، فهذا أبو هارون العبْدىّ قال : كنّا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحبا بوصية رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا »(٢) .

هذه بعض آداب المعلم والمتعلم فى الإسلام التى لم ترق إليها الدراسات التربوية الحديثة اليوم ، ولم تنجح فيما نجحت هى فيه من إيجاد الرّوابط المتينة والصّلات الوثيقة بين المتعلمين ومشايخهم ، حين كان العلماء لا يرقبون جزاء ولا شكورا ، ولا يطمحون إلى الدرجات والمكافآت المادية بل كانوا يبرون بالمواثيق التى أخذت عليهم ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٨٧]. ويقدّرون كذلك هذا التهديد والوعيد الوارد فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** ﴾ [البقرة : ١٧٤، ١٧٥] .

ولما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نّار »(٣) .

٢ ــ « وما اجتمع قوم . . . . يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم » .

ممّا سبق رأينا أن شرّاح الحديث اختلفوا فى معنى قوله ﷺ : « ويتدارسونه » فمنهم من ذهب إلى أنها عطف مرادف لقوله : « يتلون » كالنّبراوى .

ومنهم من ذهب إلى أنّ المُدَارسة هى تفهّم معانيه ومعرفة أحكامه والاتعاظ بمواعظه، ومنهم من فسّر المدارسة باعتبارها الطريقة المثلى فى تحفيظ كتاب الله وهى غير

(١) رواه أبو داود ، وابن ماجه .
(٢) رواه الترمذى ، وابن ماجه .
(٣) رواه أبو داود ، والترمذى .

التلاوة ، وإلى هذين الرأيين الأخيرين أميل .

فالمدارسة إذًا هى أن يقرأ هذا شيئا ويعيد الآخر ما قرأه صاحبه وهى نفسها التى كان يدارس بها جبريل عليه السّلام سيّدنا محمدا عليه الصلاة والسلام. عن ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ قال : كان النبىّ ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل ــ عليه السلام ــ يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبىّ ﷺ القرآن ، وفى رواية : فيدارسه القرآن فإذا لقيه جبريل ــ عليه السلام ــ كان أجْود بالخير من الريح المرسلة (١) .

قال صاحب (غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول) فى شرحه للمدارسة : يقرأ جبريل أوّلا والنبىّ ﷺ يسمع، ثم يسكت جبريل والنبىّ ﷺ يقرأ ثانيا هذه الطريقة فى التلقين تسمّى اليوم عندنا بالمتابعة وهى أضمن الطرق وأحرصها على كتاب اللّه وصيانته من التّحريف والتّغيير ؛ وذلك لأن فى القرآن الكريم ألفاظا لا يتأتى للقارئ أن ينطقها كما هى مهما كانت ثقافته وبلاغته إلا إذا تلقّنها من فى الحافظ لكتاب اللّه .

والنقول متواترة من مقرئ لآخر إلى أن نصل فى العد التصاعدى إلى التّابعين ثم إلى الصحابة الكرام ، ثم إلى الرسول ﷺ ثم إلى جبريل ــ عليه السّلام ــ ثمّ إلى اللوح المحفوظ ﴿ **هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ [البروج: ٢١ ، ٢٢] ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة : ١٦ ــ ١٨] وذى إحدى معجزات القرآن الكريم الخالدة بخلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولله درّ علماء الأمّة وسلفها ــ ورضى اللّه عنهم ــ حينما احتاطوا فى حفظ كتاب الله تعالى ، ومن جملة تدابيرهم ما نص عليه الشيخ خليل ــ رحمة اللّه عليه ــ فى مصنّفه فى فصل سجود التلاوة : وفى كره قراءة الجماعة على الواحد روايتان .

وجاء فى الشرح الكبير لأبى البركات أحمد الدردير قوله :

وفى كره قراءة الجماعة مجتمعين (على) الشيخ (الواحد) مخافة . . التخليط وجوازها (روايتان) عن الإمام .

وفى حاشيته قال الدسوقى : قوله : (قراءة الجماعة) المراد بها : ما زاد على الواحد قوله : (مخافة التخليط) أى : ولأنه لابد أن يفوت الشيخ سماع ما يقرؤه بعضهم حين الإصغاء لغيره فقد يخطئ القارئ الذى لم يصغ الشيخ لقراءته فى ذلك الحين ، ويظن ذلك القارئ أن الشّيخ سمعه فيحمل عنه الخطأ ويظنه مذهبا له .

---

(١) رواه الشيخان .

قوله : (وجوازها) أى : للمشقة الداخلة على القراء بانفراد كل واحد بالقراءة عليه إذ قد يكثرون فلا يعمّهم فجمعهم أحسن من القطع لبعضهم .

قوله : (روايتان عن الإمام) أى : فكان أوّلا يكره ذلك ولا يراه صوابا ثم رجع وخفّفه ، فإن قلت : حيث رجع عن الكراهة فالمعمول به الجواز ، فكان الأولى للمصنّف الاقتصار عليه ؛ لأن الكراهة مرجوع عنها فلا تنسب لقائلها ، وأجيب بأنّ قواعد المذهب لما كانت تقتضيها صح نسبتها للإمام وإن رجع عنها .

قال شيخنا العدوى : والظاهر من الروايتين الكراهة ؛ لأن كلام اللّه ينبغى مزيد الاحتياط فيه ، ومحل الخلاف إذا كان فى إفراد كل قارئ بالقراءة مشقة فإن انتفت المشقة فالكراهة اتفاقا(١) .

القانونية :

« من نفس . . . نفس الله عنه ، ومن ستر . . . ستره الله . . . ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه . . . . » .

أولا : جاء هذا الحديث يقرّر قاعدة ذهبية فى الشريعة الإسلامية ألا وهى : الجزاء من جنس العمل . قال تعالى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

هذه القاعدة الجليلة تنطبق أوّل ما تنطبق على علاقة المخلوق بالخالق ــ سبحانه وتعالى ــ الذى صوّر الإنسان فى أحسن صورة وجمله ، وأنعم عليه وتعهّده وسخّر له آلاءه ، وأمدّه بما لا قبل له به من الحمد والثناء .

ثم لا يلبث أن يقف على قدميه فيجاهر بالعصيان ويقابل ربّه المتفضل عليه بالجحود والنكران .

إنه بشكره وحمده وإن ظل طوال حياته لن يجازى ربه ــ حاشا للّه ــ وأنّى للعبد المملوك من أملاك حتى يجازى بها ؟ !

ولكنه على الأقل يعترف بالجميل ومن ثمّ لا يظلم الحقيقة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الانفطار:٦ ــ ٨]، ﴿ **فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**

(١) حاشية الدسوقى ١ / ٣٠٩ .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٤٩] .

وتنطبق هذه القاعدة كذلك على علاقة المخلوق بالمخلوق وما ينبثق عنها من جزاء فى الدنيا أمام القضاء الإسلامى والعرف الاجتماعى، وفى الأخرى أمام الحاكم الأعلى ــ عز وجل ؛ لأن الإسلام لا يغمط الحقوق ، ولا ينكر لذوى الجهود الطيبة والبر والإحسان ؛ لأنّ الذى لا يحمد الناس لا يحمد الله ، وعليه فليس من المنطق السليم ولا من المنهج القويم أن نجازى المحسنين جزاء سنمّار ، ولا يستسيغ عاقل تطبيق ذلك ناهيك عن شريعة العدل السَّمْحة .

فهل يستقيم أن نقلد الخونة ومن ثبتت مقاتلتهم لأهل الإسلام مع أعدائهم ، أو من أدينوا بالجرائم الموبقة ، وتلبّسوا بالكبائر المهلكة ، قلت : أيستقيم أن نقلدهم المناصب العالية فى الأمّة والأرائك المرتفعة !

أفلا يكون من جنون[1] الجنون أن نكرّم اللصوص الكبار ونتعقّب أرباب الأموال باللوّم والتقريع ؛ لأنهّم لم يحفظوا أموالهم فى البنوك الربوية[2] . . إلخ .

وقد جاءت نصوص كثيرة تقرّر تلك القاعدة السالفة: منها قوله ﷺ : «إنّما يرحم الله من عباده الرحماء»، وقوله: «إن الله يعذّب الذين يعذّبون الناس فى الدنيا».

وأخرج الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا :« أيّما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيّما مؤمن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه اللّه يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمنا على عرى كساه اللّه من خضر الجنّة » .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن ابن مسعود قال : يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا قط ، فمن كسا لله كساهُ الله ، ومن أطعم لله أطعمه الله ، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن عفى لله أعفاه اللّه .

ثانيا : «ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة». حدّ الإسلام حدودا كسرًا لشوكة الظالمين ، وردْعا لأهل الشّر والمفسدين وإقامة للعدل ، وحفظا للأرواح،

---

(١) أشير بهذا إلى قول الشافعى ــ رحمه الله ــ : جنونك مجنون ولست بواجد .

(٢) هذه حقيقة واقعية وقعت للوالد « الشيخ عبد الحميد تاتاى » سنة ١٩٨٥ م . بمحكمة باتنة بالجزائر ، حيث ترك القاضى الجائر السارق المحتال طليقا ، وراح يلوم الوالد ومن معه على عدم إيداعهم أموالهم المسروقة بالبنوك الربوية . فانظر إلى ذلك المنطق المقلوب والعدل الموؤود .

والأموال والأعراض ، وصدق اللّه العظيم إذ يقول : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

ومن أجل ذلك حث النبىّ ﷺ على إقامة هذا الواجب الأساسى فى التشريع الإسلامى ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لحدٌّ يُقام فى الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحا » .

وما دام الحديث على العفو والستر ، فإننا سنتناول إقامة الحدود من هذا الجانب ، وعليه فهل تنفع الشفاعة فيمن أصاب حدّا من حدود اللّه ؟ والجواب يحتّم علينا استعراض الخلاف الفقهى بين الأئمة ــ رحمة اللّه عليهم ــ فى هذا الشأن ، واختلافهم لا يدور حول ما بلغ للسلطان وما لم يبلغ بل فى حال المذنب نفسه .

قال أبو عمرو بن عبد البر : لا أعلم خلافا أنّ الشفاعة فى ذوى الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السّلطان ، وأن على السلطان أن يقيمها إذا بلغته .

وذكر الخطّابى وغيره عن مالك أنه فرّق بين من عرف بأذى الناس ومن لم يعرف . فقال : لا يشفع للأوّل مطلقا سواء بلغ الإمام أم لا ، وأمّا من لم يعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام ، وتمسك بحديث الباب من أوجب إقامة الحدّ على القاذف إذا بلغ الإمام ، ولو عفا المقذوف وهو قول الحنيفة والثورى والأوزاعى ، وقال مالك والشافعى وأبو يوسف : يجوز العفو مطلقا ، ويدرأ بذلك الحدّ ؛ لأنّ الإمام لو وجده بعد عفو المقذوف لجاز أن يقيم البيّنة بصدق القاذف فكانت تلك شبهة قويّة[1].

الاقتصادية :

١ ــ إنّ التباعد الكبير والفرق والشاسع بين الاقتصاد الإسلامى ، والاقتصاد فى النظم المختلفة الرأسمالية والشيوعية لا يتجلى فى الأبعاد والأهداف التى يسعى كل إلى تحقيقها بل وفى المنطلقات الأساسية الأولى ــ وهذا هو الأصل ــ حيث يعتبر المال فى النظام الاقتصادى الإسلامى ليس هو المتحكم فى قوانين التعامل المادى ، بل يقوم التعامل على الأخلاق وهى ما يشار إليها فى الأحاديث النبوية بالصّدق ، والأخلاق ، والسماحة ، والرحمة ، كما أنّه لا يعتبر رأس المال وسيلة للربح المادى والثراء المالى مثلما تنظر إليه النظم الأخرى بشعارها : دعه يعمل دعه يربح ، بل يعتبره وسيلة للربحين المادى المعجل ، والأخروى المؤجّل ، ووسيلة لتنفيذ إرادة اللّه على حدّ سواء؛

(١) الترغيب والترهيب ٣ / ٢٤٧ .

لـذا حـثّ الإسـلام عـلى القرض واعتبره من قبيل التيسير على المعسر الذى ورد فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

والقرض فى النظام الاقتصادى الإسلامى مخالف لجميع أنواع القروض فى جميع النظم الأخرى ؛ لأنه بلا مقابل مادّى ، بل حرّم الإسلام أن يجلب السلف أدنى منفعة فى حين أن القرض فى الاقتصاد العالمى اليوم يقوم أساسا على الفوائد الربوية ، وهذه العملية لم تستجدّ فيها الشيوعية أو الرأسمالية شيئا بل هى امتداد للنظام الربوى الجاهلى الذى كان سائدا قبل الإسلام فى المجتمعات الجاهلية .

عن عبد الله بن أبى ربيعة رضى الله عنه قال: استقرض منّى النبى ﷺ أربعين ألفا فجاءه مالٌ فدفعه إلىّ وقال : « بارك الله فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء » (١) .

وجاء أيضا فى فضل القرض عن عبد الله بن مسعود رضى اللّه عنه أنّ النبىّ ﷺ قال: « ما من مسلم يقرض مسلما قرضا مرة إلا كان كصدقتها مرتين » (٢) .

وعن البراء بن عازب ــ رضى الله عنهما ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من منح منيحة لبنٍ ، أو ورق ، أو هدى زُقاقا كان له مثل عتق رقبة » (٣) .

ولضمان أموال الدائنين نظّم الاقتصاد الإسلامى عملية الاستدانة والتوثيق والإشهاد وبالتحذير من المماطلة وعدم التسديد ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبىّ ﷺ قال: « مطْل الغنىّ ظلم » (٤) . وعن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « إنّ أعظم الذنوب عند اللّه أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى اللّه عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء » (٥) .

وعن جابر رضى اللّه عنه قال : كان رسول اللّه ﷺ لا يصلى على رجل مات وعليه دين فأتى بميت فقال : « أعليه دين ؟ » قالوا : نعم ديناران ، قال : « صلوا

---

(١) رواه النسائى .

(٢) رواه ابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى مرفوعا وموقوفا .

(٣) رواه أحمد ، والترمذى .

(٤) رواه البخارى ، ومسلم .

(٥) رواه أبو داود .

على صاحبكم » ، قال أبو قتادة : هما علىّ يا رسول اللّه فصلى النبىّ ﷺ ، فلما فتح الله على رسوله قال : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك دينا فعلىّ قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته » (١) .

٢ ــ كما أنّ الإسلام فى تشريعه الاقتصادىّ عمل على تحرير الفقراء من ربقة الاستغلال والاستعباد ، فحرّم استغلال حاجة المعوز واستنزاف طاقته وجهده واغتنام أرباب الأموال لساعات ذله واستدانته منهم حتى يفرضوا عليه شروطهم الربوية مقابل أيام الدين ، فتربوا ثرواتهم وتتضخّم عائدات قروضهم ، وهم على فرش بطائنها من إستبرق على حساب المسكين المستدين .

فقه الدعوة

١ ــ إنّ القاصرين فى الفهم قصروا كلمة العلم على فهم الشريعة الإسلامية مثلما قيّدوا مصطلح الفقه على أحكام العبادات والمعاملات ، وهم بهذا التضييق والتخصيص جنوا جناية كبرى على الأمة الإسلامية ، وضربوا عليها حصارا شديدا كبّل معارفها وجمح أذهان أبنائها وعقولهم . . . وظلت ترزح تحت الجهل بحقائق الكون وسنن الحياة طيلة هذه القرون المتأخرة . . . فى حين نشطت حركة التأليف وإعادة التأليف فى الأحكام الفقهية وأعنى بإعادة التأليف أى نظم أمهات الكتب ، وجمع بعضها ، وفصل البعض الآخر أى أن الحركة فى حلقة مفرغة .

وتعطلت الجهود ، وأجهضت الطاقات الفكرية التى عرف بها علماء الموسوعات فى العصر الذهبى للحياة الثقافية فى الإسلام ، بل وأهملت البحوث والأمّهات العلمية والمراجع الثقافية فى زمن حرّم أهله ــ علم الكيمياء والمنطق ــ وأداروا ظهورهم لابن النّفيس ، والحسن بن الهيثم ، وابن سينا ، والفارابى ، وابن خلدون وكأنهم لم يمرّوا يوما على قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠]، ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا . قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا .

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم .

فما اسطاعُوا أن يظْهَرُوهُ وما استَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٣ ــ ٩٧] .

والحقيقة أن لفظة العلم التى وردتْ فى الحديث : « يلتمس فيه علما » جاءت هكذا نكرة ، والنكرة تفيد العموم .

ولكن ــ ويا أسفاه ــ الذين جنوا على ماضى الأمة القريب ظلوا فى فهمهم الخاطئ يعمهون ، وحسبوا خطأ أن الدّعوة لا تستقيم إلا بفهم الشريعة الإسلامية خاصّة، وأنه لا شأن له بالطب ولا بالهندسة ولا بالمعطيات التكنولوجية الحديثة .

لذا تزايد الأطباء والمهندسون المسيحيون فى مصر فى أواسط هذا القرن . . . بينما يتوجّه المسلمون إلى الأزهر الشريف وإلى معاهد اللغة العربية والعلوم الاجتماعية .

٢ ــ إذا كانت العلوم الشرعية تهدى صاحبها سبيل الجنة ؛ لأنّها تعرّفه الحلال من الحرام ، والفرض من السّنة ، و.. و.. فإنّ العلوم الأخرى ــ النظرية والتطبيقية ــ تزيد فى إيمان المؤمن واطمئْنانه ، ولله درّ شيخ الأنبياء عليه الصلاة والسلام حين سأل ربه فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] . كما تُرِى الباحث آيات الله الكبرى ، وتوقفه أمام القوّة العليا وتجعله يلمس الدقّة غير المتناهية فى الخلق والإبداع ، والنظام البديع هنالك تقف جميع القوى أمام التحدّى الإلهى ، فيقرّ من شرح الله صدره بعظمة الخالق ووحدانيته وهذا مصير الكثير من علماء الغرب اليوم الذين اهتدوا بهدى الله سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣ ، ٤] .

وجدْوَى هؤلاء ــ إن فقهوا الدين الجديد بالنسبة للدّعوة فى أوساط بنى جلدتهم ومواطنيهم ــ أكثر بكثير من دعوة داع لا يملك غير فهم أحكام بعض العبادات من سلاح .

٣ ــ يعتقد الكثير من طلبتنا أن جهودهم لا طائل من ورائها للدعوة الإسلامية ، ومن ثم يهملون البحث العلمى ، ويعكفون على البحث فى آراء الأشاعرة والمعتزلة ويزجّون أنفسهم فى متاهات الخلاف فى تحديد مفهوم ما . . . كالقضاء والقدر . . . والتنفل قبيل صلاة المغرب . . وطول الجلباب ــ والكولونيا . . والقبض والسّدل . .

وغير ذلك ، ولا يعلمون أنهّم بذلك يحققون مآرب أعداء هذا الدِّين بقعودهم عن العمل واهتمامهم بالجدل .

بل وضررهم فى تضييع هذه الفروض الكفائية أشدّ من المتربّصين بالإسلام ؛ لأنهم يكرسون أغلوطة طالما حاول الغربيون الذين كابدوها أن يصمونا بها . . . ألا وهى عداوة الدين للعلم !

تطبيق

١ ــ قال ﷺ : « من نفّس عن مؤمن كرْبة من كرب الدنيا »، وفى رواية: «من فرّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا » .

بعض ضعاف الإيمان اليوم يسْعون حين تنزل بساحاتهم الكرب وتحل بهم ضائقة إلى:

أ ــ تعليق التمائم والحروز مستعيذين بها مستعينين ، تاركين الاستعانة من الذى بيده كل شىء قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤].

وقال تعالى حاكيا عن إبراهيم : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ ــ ٨٢] .

وهذا عبد الله بن مسعود يصحح عقيدة أهله ، فعن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه دخل على امرأته وفى عنقها شىء معقود فجذبه فقطعه ثم قال : لقد أصبح آل عبد اللّه أغنياء عن أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الرقى والتمائم ، والتَولة شرك » قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناهما فما التّولة ؟ قال : شىء تصنعه النساء يتحبَّبْن إلى أزواجهنّ(١) .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم باختصار عنه ، وقال : « صحيح الإسناد » .

علق تَميمَة فلا أتمّ الله له ، ومن علق ودعة فلا ودع الله له » (١) .

والتميمة هى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتّقون بها العين كما يدّعون.

ب ــ أو ربّما استغاثوا بولىّ أو قبر عسى أن يفرج عنهم، وييسر عسرهم ، وينذرون له النذر ويذبحون . . و . .

٢ ــ التفريج مثلما يكون بالمال يكون أيضا بالجاه والنفوذ، بينما نجد العالم الإسلامى اليوم لا يحرك ساكنا ، ولا يبذل جهدا فى التنفيس على الأقليات الإسلامية فى العالم، والتى آلت أوضاعها المزْرية وأحوالها المتردية إلى مصير مجهود وسبيل مسدود، فهذه جهود البلغرة قائمة على قدم وساق . . . وهذه محاولات التعقيم والتهويد فى فلسطين . . . والتنصير والتّشريد فى أفريقيا وأندونيسيا . . . وهلمّ جرّا ، فهل كنا مع هؤلاء حتى ننتظر أن يكون النصر حليفنا . « . . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

٣ ــ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله » .

إن للمسجد فى الإسلام مكانة عظمى ورسالة كبرى إذ هو مصنع الرّجال ومحل العبادة ، ومهد الحضارة الإسلامية ، وهو الثكنة العسْكرية والمدرسة الجامعية، ولخطورة أدواره كان المسجد أوّل عمل يقوم به رسول الله **ص** فى مهجره .

والمسجد فوق هذا دار عبادة وتهجّد وتلاوة تحقيقا لأمر الحق سبْحانه : ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [الحج : ٢٦] ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾ [النور: ٣٦].

لكن مصيبة الإسلام اليوم فى المسجد المهمّش عظيمةٌ ، حيث تبارى النّاس فى تشييد المساجد وزخرفتها وتعدّد مداخلها ومآذنها ومكبرات الصوت المعلقة فيها ، ومصابيحها ،وملحقاتها ؛ ولكنها رغم شموخها ظلت خاوية إلا من بعض المصلين ، وأضحت كثيرٌ من المساجد العتيقة ــ التى صقلت فى أرجائها المواهب ، وانطلقت من ساحاتها نجوم الهدى، ومصابيح العلم والإيمان اليوم ــ معْلما من المعالم الأثرية التى تجوبها القوافل الغربية السياحية ، والواقع على ما أقول شهيد .

٤ ــ من العجب العجاب ، والأهوال التى تشيب الغراب ، وتدهش ذوى الألباب أنّ أقواما من أهل الإسلام اليوم يعتقدون أنّ عمارة المسجد لا تتمّ إلا بالموائد والثرائد ، وإن كانت بلا فوائد ، ناسين أو جاهلين أنّ المساجد بنيت لما بنيت له ، وأنّه لو كانت العمارة بمثل ذلك فمن يطعم الحجاج ، وينفق على العمّار أثناء الزّيارة للبيت الحرام ؟ !

(١) رواه أحمد .

وهل الطعام (١). هو وحده الذى تحّن إليه القلوب وتتشوّق النُّفوس وتنشط الأرواح والجوارح ؟ فأين هؤلاء إذًا من قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ** ﴾ [التوبة : ١٨] .

وفى مثل أولئك قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة رضى اللّه عنه : أن رسول اللّه ﷺ فقد ناسًا فى بعض الصلوات فقّال : « لقد همّمت أن آمر رجُلا يصلى بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرّقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم، ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها » ــ يعنى العشاء (٢) .

٥ ــ « يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه فيما بينهم » .

لتلاوة القرآن الكريم آداب سبق وأن تعرضنا لبعضها فى مقامها ، ولكن بالمقابل نجد أنّ هذه الآداب لا تراعى فى كثير من الأحوال ، فقارئ القرآن بلا ترتيل أو تدبّر أنّى له أن يَعِىَ شيئا ممّا يقول ، لأنّ الهذْرمة تؤدى إلى خلط كلماته ، وتداخل حروفه ، وتذهب بحلاوته ، وتمنع من بقاء أثره فى النفس .

بيْد أن بعض القراء وأئمة التراويح يتبارون ويتسابقون ، ويفتخر أهل هذا المسجد على ذلك بسرعة قارئهم وخفته وعدم استغراقه لثلث الساعة فى التراويح فى رمضان .

٦ ــ يعتمد البعض على هذا الحديث وعلى أحاديث أخرى أوردناها فى مظانّها فى التحلق للذّكر وقراءة أوراد معينة ثم ينتحلون صفة أخرى وهى التمّوج والتّمايل ، وهزّ البطون ودّق الطبول وهو ما يسمى عند البعض بـ (الحضرة) . ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

٧ ــ « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل اللّه له به طريقا إلى الجنة » . سلكت البعثات العلمية من العالم الإسلامى والعربى منه على الخصوص طرقا عديدة تلتمس فيها مفاتيح العلم، وأسرار التكنولوجيا، وذلك بتموين ورعاية من بلدانها الأصلية أى بعرق أبناء أمتها ومن خالص أموالها العامّة التى اقتطعتها من أرزاقها ، وهى تنتظر عودة هذه الكوكبة لتؤمّن لها إدارة معاملها وتحريك دواليب مصانعها ، ولتخرجها من العدّو الثلاثى المقيت : (الفقر، الجهل ، الجوع) .

ولكن طائفة من هذه البعثات خيبت آمال الأمّة فتنمّرت لأبناء دينها ، وردت لها صنيعها مثلما قيل : جزاء سنمار . . . وسهّل لها تكوينها ودراستها طريقا لا إلى الجنّة

(١) المراد به الكسكس الذى تشتهر به منطقة المغرب العربى .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود، والترمذى ، والنسائى .

وإلى استرداد عزّة الأمّة الإسلامية وهيبتها بإعدادها ما أمرَها ربها به ﴿ **وأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

بل إلى خليلة أوربيّة لتسوية أوضاعه الإدارية وأوراقه الثبوتية ثم إلى المصانع الغربية والمعامل الأوربية ، وقد انهزم الكثير من أبنائنا أمام هذه المغريات ، وخارت قواه المعنوية أمام البهرجة المزيّفة . ومن ثمّ خسرت أمتهم خسارتين .

الخسارة الأولى : الخسارة المادية بنفقاتها وأموالها ، والثانية : بتملص هذه الطاقات من أيديها ، بدلا من أن يحلوا محل الأيدى الفنية الأجنبية التى ثبتت خطورتها .

٨ ــ « ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

يصدق هذا فى المجتمع الإسلامى المنشود الذى يحكم المنهج القرآنى ، ويتحقق بلا ريب أيضا ساعة العرض على الديّان عز وجل : ﴿ **فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** ﴾ [عبس: ٣٤ ــ ٣٦].

ولكنّه فى واقعنا المتمرد عن أحكام اللّه من قبيل الثلاثة التى لا وجود لها كما يقول الشاعر :

ثلاثة ليس لهن وجود الغول والعنقاء والخل الودود

فكم من طلاب بطأت بهم جهودهم ، وأسْرعت بهم أنسابهم ، وإلا فهل من الصدفة أن يكون النجاح دوما حليف أبناء الذين لا يخفضون بأدوات الجر كلها . . . وكم من إداريين . . . . ووزراء . . . . وأمراء فلا حول ولا قوة إلا باللّه الذى بيده تغيير الحال والمآل.

الحديث السابع والثلاثون

عن ابن عبّاس ــ رضى اللّه عنهما ــ عن رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى، قال : « إنّ اللّه كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها اللّه عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبَهَا اللّه عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها اللّه سيئة واحدة » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بهذه الحروف .

لمحة عن الراوى :

إضافة لما نقلناه فى الحديث التاسع عشر عن ابن عباس رضى اللّه عنه الذى ولد قبل الهجرة بثلاث سنين بالشعب الذى حوصر فيه بنو هاشم .

وتوفى رسول اللّه ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وثبت عنه أنّه قال: رأيت جبريل مرّتَيْن .

روى له ألف حديث وستمائة وستون حديثا ، اتّفق منها البخارى ومسلم على خمسة وتسعين ، وانفرد البخارى بثمانية وعشرين ، ومسلم بسبعة وأربعين .

مات بالطائف ودفن بها سنة ثمان وخمسين فى خلافة ابن الزبير ، وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وقال: مات ربانى هذه الأمة .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

مصطلح الحديث :

جاء هذا الحديث مبيّنا مقادير الحسنات والسّيئات ليقطع دابر مبالغة الوضّاعين ، وليميز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة .إذ الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير ، أو الوعيد العظيم على الفعل اليسير هو ضرب من ركاكة المعنى التى تعدّ

فمن همّ : الهمّ أقل من العزم ، وهو : تغليب فعل الشىء على تركه .
كتبها اللّه عنده : أى فى المنزلة العالية .
عشر حسنات : وهى أقل التضعيف .
فلم يعملها : أى تخوف من اللّه تعالى .

إحدى ضوابط معرفة الحديث الموضوع ، كما قال ابن الجوزى : . . وإنّى لأستحيى من وضع أقوام وضعوا : من صلى كذا فله سبْعون دارا فى كل دار سبعون ألف بيت فى كل بيت سبعون ألف سرير ، على كل سرير سبعون ألف جارية .

وإن كانت القدرة لا تعجز ، ولكن هذا تخليط قبيح ، وكذلك يقولون : من صام يومًا كان كأجر ألف حاج وألف معتمر، وكان له ثواب أيوب ، وهذا يفسد مقادير موازين الأعمال .

وفى مضاعفة الأعمال المبالغ فيها ورد الكثير من الأحاديث الضعيفة . فقد أخرج التّرمذى من حديث ابن عمر موقوفا :

« من دخل السوق فقال : لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، كتب اللّه له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة » .

كما خرج الطبرانى بإسناد ضعيف أيضا عن ابن عمر مرفوعا : « من قال : سبحان اللّه كتب اللّه له مائة ألف حسنة » .

علم السلوك :

١ ــ قوله ﷺ : « وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة » .

فمن عقد العزم على فعل معصية مّا وحال دونه وإيّاها اطلاع الناس عليه لا مراقبة منه للهّ ــ عز وجل ــ فلا يثاب على هذا التّرك بل قيل : يعاقب على تركه لها بهذه النّية.

ومما ينسب فى هذا الباب إلى ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ قوله : خوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب ، ولا يضطرب فؤادك من نظر اللّه إليك أعظم من الذنب إذا فعلته ؛ لأن تقديم خوف المخلوقين على خوف الخالق مَذْمُوم قال تعالى : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾ [النساء : ١٠٨] ، ﴿ **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة : ١٣] .

قال الفضيل بن عياض : كانوا يقولون : ترك العمل للناس رياء ، والعمل لهم شرك. من أجل هذا حرص العارفون باللّه على أن يتمحّضوا فى الرغبة والرهبة ، والخــوف والرجاء للّه تعالى ، فكانوا يرقبون الله فى كل شىء فى فعل الواجب ،

واجتناب المحرم وكلاهما طاعة قال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] . والشرك خطورته على عقيدة المؤمن غير خفيّة وتشمل خطورته فيما تشمل دقة منافذه وتشعب سبله ؛ لهذا شدد النبىّ ﷺ فى التحذير منه ، فعن أبى موسى الأشعرى رضى اللّه عنه قال : خطبنا رسول اللّه ﷺ ذات يوم فقال : « يأيها الناس اتّقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النّمل » فقال رجل: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول اللّه ؟ قال : « قولوا : اللهّم إنّا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » (١) .

٢ ــ « . . . وإن همّ بها فعملها كتبها اللّه سيئة واحدة » .

من فضل اللّه تعالى علينا أن كتب على فعل السيئة سيئة واحدة بلا مضاعفة ، ولكن قد تتضاعف السيئات وذلك بحسب شرف فاعلها ، وقوّة معرفته باللّه تعالى وقربه منه ؛ ولهذا توعّد اللّه سبحانه وتعالى عباده المخلصين على المعصية بمضاعفة الجزاء ــ ولو كانوا معصومين ــ وما ذلك إلا ليبيّن لهم فضله عليهم بعصمتهم ، وحفظه لهم كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً . إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ [الإسراء : ٧٤ ، ٧٥] ، وكما قال أيضا : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧] .

فحسنات الأبرار إذًا سيئات المقرّبين ــ كما يقول العارفون بالله ــ ولما كان شرف نساء النبىّ ﷺ من شرفه استحقّ مقامهُن التضعيف فنزل فيهن قول الحق سبحانه: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٠ ، ٣١] .

العقائدية :

١ ــ « . . . إنّ اللّه كتب الحسنات والسيئات . . . » .

إن الكتابة هنا بمعنى قدّر، أى: أن الله تعالى قدّر أفعال العباد وأمر الملائكة بكتابتها على نحو ما جاء فى الحديث: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمّه . . . . ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله،

(١) رواه أحمد ، والطبرانى .

وشقىّ أو سعيد » (١) .

وقد ذهب فريق إلى تأويل الآيات القرآنية التى توهم التشبيه، تعالى اللّه علوا كبيرا عن الشبيه والنظير ، قال الشيخ إبراهيم السّهائى صاحب كتاب (ترغيب المريد السّالك فى مذهب الحبر الإمام مالك) :

وكل ما جاء بلفظ يوهم أوّله أو قل فيه ربّى أعلم !!

وعن السلف المثبتين للصفات أو الأسماء بلا تأويل أو تشبيه أو تكييف ـ ممن أطلق عليهم ـ ظلمًا وعدوانًا ـ المشبّهة الحشوية، تحدث أبو الفضل عبد اللّه بن الصّديق الغمارى فى كتابه (إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة) فقال :

يشبهون اللّه بخلقه ، أجازوا عليه المماسة والمصافحة ، وأجروا ما جاء فى الآيات والأحاديث من ألفاظ الاستواء والوجه واليدين والعين والجنب، والمجىء والإتيان، والفوقية، وغير ذلك على ظاهرها الذى يفهم عند إطلاقها على الأجسام ، حتى قال داود الخوارى منْ زعمائهم : اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عمّا وراء ذلك ، ومعنى هذه العبارة أنّه يثبت للّه جميع الجوارح غير اللحية والفرج !!

قال التاج السّبكى فى طبقات الشافعية : إنّ أبا إسماعيل عبد اللّه بن محمد الهروى الذى تسّميه المجسّمة شيخ الإسلام، قال : سألت يحيى بن عمار عن ابن حبان، قلت: رأيتَه ؟ قال : وكيف لم أره ؟ ونحن أخْرجناه من سجستان كان له علم كثير ، ولم يكن له كبير دين . قدم علينْا فأنكر الحدّ للّه ، فأخرجْناه من سجستان .

قال السبكى : انظر ما أجهل هذا الجارح ! وليت شعرى من المجروح ؟ ! مثبت الحدّ للّه أو نافيه ؟ !

وذكر فى الطبقات أيضا فى ترجمة أبى عثمان الصابونى : أنّ المجسّمة بمدينة هراة لقبوا أبا إسماعيل عبد اللّه بن محمد الأنصارى المشار إليه بشيخ الإسلام ، قال : وكان الأنصارى المذكور كثير العبادة محدّثا ، إلا أنّه كان يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من أهل السّنة فى كتابه (ذمّ الكلام)حتى ذكر أن ذبائح الأشعرية لا تحل .

وله أيضا كتاب الأربعين ، سمتها أهل البدعة (الأربعون فى السّنة) يقول فيها : باب إثبات القدم للّه ، باب إثبات كذا وكذا ، يعنى الأعضاء كاليد والجنب قال : وكان أهل هراة فى عصره فئتين : فئة تعتقده وتبالغ فيه ، لما عنده من التقشّف والعبادة . وفئة تكفره ، لما يظهره من التشبيه . ا . هـ .

---

(١) راجع : الحديث الرابع فى هذه السلسلة .

قال : ومن مصنفاته التى فوّقت نحوه سهام الملام كتاب (ذمّ الكلام) وكتاب (الفاروق فى الصفات)، وكتاب (الأربعين) وهذه الكتب الثلاثة ، أبان فيها عن اعتقاد التشبيه وأفصح .ا.هـ (١) .

وهذا الذى ذكره الغمارى عن الهروى وغيره مجانب للصواب ، فقد كان ابن تيمية يثنى على مصنّفات الهروى هذا ويحضّ على قراءتها؛ لأن هذا قول السلف .

٢ ــ يجب الاعتقاد بأن كل أفعال العباد الاختيارية ــ أى أقوالهم ، وأفعالهم ، واعتقاداتهم ، ونياتهم ــ تكتب فى الصحائف بواسطة الحفظة من الملائكة الذين فى ضمنهم الكاتبان اللذان يكون أحدهما عن يمين العبد ، والثانى عن يساره ، وكل منهما يسمى رقيبا عتيدا : أى حاضرا حافظا ، فالذى يكتب الحسنات صاحب اليمين ، والذى يكتب السّيئات صاحب الشمال ، فإذا فعل العبد حسنة كتبها صاحب اليمين فى الحال ، وإذا فعل سيئة وأراد أن يكتبها صاحب الشمال أمره صاحب اليمين بالتأخير إلى خمس ساعات لأن له عليه إمارة ، رجاء أن يتوب العبد فإن لم يتب كتبت عليه من غير تضعيف (٢) .

والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار : ١٠ ـ ١٢] ، ﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٧ ، ١٨]. وخبر : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ». والحكمة من الكتابة هى إظهار عدل اللّه ــ عزّ وجل ــ يوم القيامة من جهة وزجر العبد حينما يعلم أنه مراقب وأن أعماله تسجل بدقة من جهة أخرى .

وكل أفعال العباد تكتب للعدل لا عن علم ربّى تعزب

الفقهية :

« وإن همّ بها فعملها كتبها اللّه عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة » .

من فضل اللّه على عباده مضاعفته للحسنة بعشر أمثالها أوْ بأضعاف مضاعفة قال

---

(١) نقلا عن كتاب : إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة ، لأبى الفضل عبد اللّه بن الصديق الغمارى ص٣٠، ٣١ ط : عالم الكتب عام ١٩٨٦ م .

(٢) من كتاب : سراج السّالك شرح أسهل المسالك بتصرف .

تعالى : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠].

ومضاعفة الحسنة بعشر أمثالها لازم لكل الحسنات : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

وأمّا زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء اللّه أن يضاعف له فدّل عليه قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] :

أ ــ بعض الطاعات المضاعفة :

ــ من الطاعات التى يضاعف اللّه ــ سبحانه وتعالى ــ حسناتها فوق العشر : الصدقة : للآية السابقة ، ولما رواه عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه حيث قال : جاء رجل بناقة مخطومة ، فقال : يا رسول اللّه هذه فى سبيل اللّه ، فقال : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة » (١) .

والصبر هو الآخر لا يعلم أجره إلا اللّه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] ، ومثله الصيام ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : «قال اللّه ــ عز وجل ــ : كل عمل ابن آدم له إلا الصّوم فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جُنّة» (٢)، ومنها الجهاد فى سبيل اللّه، وصلاة الجماعة، وقراءة القرآن الكريم . . وغيرها كثير .

ب ــ أسباب المضاعفة :

١ ــ تكون المضاعفة بحسب إخلاص المؤمن وحسن إسلامه، جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى اللّه عز وجل » .

٢ ــ وتكون بحسب الحاجة إلى ذلك العمل وفضله كالنفقة فى الجهاد وفى الحجّ وفى الأقارب وفى اليتامى والمساكين ، وأوقات الحاجة إلى النّفقة ويشهد لذلك ما روى عن عطية عن ابن عمر رضى اللّه عنه قال : نزلت ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] فى الأعراب ، قيل له : فما للمهاجرين ؟ قال : ما هو أكثر ، ثمّ تلا قوله تعالى : ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) رواه البخارى ــ واللفظ له ، ومسلم

٣ ــ وتتضاعف أيضا بحسب الأزمنة وبعض الأمكنة كشهر رمضان وليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، وكالأشهر الحرم . . . ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وبالنسبة للأمكنة كالحرم المكّى والمسجد الحرام ، ثم المسجد النبوى ، ثم الأقصى الذى بارك اللّه حوله وهى التى تشدّ إليها الرحال دُونَ غيرها .

جـ : دور النية فى صحة الصدقة والزكاة :

لا نـقصد بهذا عدم اشتراط النيّة فى الصّدقة أو الزكاة ، وصحتها بدونها كلا ؛ لأن مدار صحة العبادات وقبولها يتوقف أساسا على النيّة .

ولكن نُريد أن نبيّن أن النية فى الصدقة على الفقراء والمحتاجين تكفى ولو لم تصادف محلها ويثبت الأجر ــ إن شاء اللّه ــ لصاحبها فعن معن بن يزيد ــ رضى اللّه عنهما ــ قال : كان أبى يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل فى المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها فقال : واللّه ما إيّاك أردت فخاصمته إلى رسول اللّه ﷺ فقال: «لك ما نويت يايزيد ولك ما أخذت يا معن »(١) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه ،أن رسول اللّه ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدّقنّ الليْلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدّق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ، لأتصدقنّ بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون: تصدّق،الليلة على زانية ،فقال: اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدّق الليلة على غنى ، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغنى ، فأتى فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعفف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعفّ عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه اللّه»(٢) .

هذا فى الصّدقة أمّا الزكاة فلا تصح إلا إذا كانت فى الأصناف الثمانية الوارد ذكرهم فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ﴾ [التوبة: ٦٠]. فلا يكفى المزكى ما دفعه فى غير مستحقها ولو باجتهاد منه حيث تبين العكس .

---

(١) رواه البخارى فى الزّكاة .

(٢) رواه البخارى ــ واللفظ له ــ ومسلم ، والنسائى .

د ــ حكم من هم بحسنة :

من هم بحسنة وعقد العزم على فعلها ومنعه مانع قهرى فالأدلة على أنه يعطى ثواب من فعلها .

أما من همّ بها وتكاسل عن أدائها فإن اللّه يكتبها له حسنة كاملة جزاء نيته الطيّبة، ففى حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه : « إذا تحدّث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة » .

قال أبو الدرداء : من أتى فراشه وهو ينوى أن يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى .

وروى عن سعيد بن المسيب قال : من هم بصلاة أو صيام أو حجّ أو عمرة أو غزوة فحيل بينه وبين ذلك بلغه اللّه تعالى ما نوى .

وهذه نصيحة جليلة ذكرها زيد بن أسلم : كان رجل يطوف على العلماء يقول : من يدلنى على عمل لا أزال منه للّه عاملا فإنى لا أحبّ أن يأتى علىّ ساعة من الليل والنهار إلا وإنىّ عامل للّه تعالى ؟ فقيل له : قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فتَرتَ أو تركت فهم بعمله فإن الهام بفعل الخير كفاعله .

ويؤكد كل ذلك ما رواه أبو كبْشة عن النبىّ ﷺ قال : « إنّما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه اللّه مالا وعلما فهو يتقى فيه ربّه ويصل فيه رحمه ويعلم للّه فيه حقا فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه اللّه علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النيّة فيقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه اللّه مالا ولم يرزقه علما فهو يتخبّط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربّه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم فيه للّه حقا فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه اللّه مالا ولا علما وهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء » (١) .

وتحمل كلمة : « فأجرهما سواء » على أصل الأجر لا على التضعيف للأدلة السابقة ، وإلا فما الفائدة من العمل ، قال تعالى : ﴿ **فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ** ﴾ [النساء : ٩٥ ، ٩٦] .

قال ابن عباس وغيره : القاعدون المفضّل عليهم المجاهدون درجة القاعدون من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، واللفظ له .

أهل الأعذار ، والقاعدون المفضّل عليهم المجاهدون درجات هم القاعدون من غير أهل الأعذار .

وهاؤم البكاؤون من أصحاب الأعذار فى غزوة تبوك يصفهم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله : « إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم » ، قالوا : يا رسول اللّه : وهم بالمدينة ؟ ! قال : « وهم بالمدينة ! حبسهم العذر » .

الثقافية :

« . . . وإن همّ بسيئة . . . » .

حينما أيس الأعداء من النيّل من القرآن الكريم ووجدوا دونه سدا منيعا وحصنا حصينا ولوّا معاولهم قبل المراجع الدينية الأخرى ، فسعوا إلى كتب الحديث النبوى الشريف وحاولوا حشوها بالموضوعات والمفتريات غير أن سهامهم قد طاشت ، وأمانيهم قد خيبّتها جهود رجال الحديث الذين قيّضهم اللّه لصون شريعته وحفظ سنّة نبيّه ؛ لأن حفظها من حفظ القرآن الكريم لما لها من دور فعّال فى شرحه ، وتقييد مطلقه ، وتخصيص عامّه . .فشمّروا عن ساعد الجدّ والتّفانى ، فكان الرجل يقطع المفاوز ويتجشم الصعاب ليتأكد من سلسلة حديث واحد ، حتى أثمرت جهودهم ــ رضوان اللّه عليهم ــ هذه الأمهات الصّحاح ، فأزاحوا عن هذه الجوهرة النفيسة ما علق بها من غبار ، وفرزوا الغثّ من السمين ، والصحيح من السّقيم ، وفوّتوا على أعداء الإسلام عامّة والمناوئين للمصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى كل الفرص .

غير أنهم ــ أى الأعداء ــ لم يغمدوا سيوفهم ، ولم يغمضوا أعينهم فحملوا كرّة أخرى على القرآن الكريم ولكن هذه المرة بوسيلة أخبث وتأكدّوا من أنها الأنجع والأفجع فجهزوا جيشا كبيرا وجحفلا عظيما مهمّته الدسّ فى كتب التفاسير، والحشو ؛ حشو الإسرائيليات الخطيرة والتى تناقلتها بعض كتب التفسير على أنها حقائق فكانت السم الزعاف فى الدسم ــ كما يقال ــ فروت من جملة ما روت ؛ ما ينال شرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويهمز كرامتهم ، ويلمز مقامهم الرفيع كل ذلك على طريقة بنى إسرائيل الذين لا يتحرجون من اتهام نبىّ من أنبياء اللّه المصطفين الأخيار بالزنا، وبمن؟! بابنتيه الكبرى والصغرى . . . وهلم جرّا .

وقريب من هذا ما وقع فيه بعض المفسرين حين تعرضهم لقول اللّه تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ من سورة يوسف عليه السلام [الآية : ٢٤] حيث اتفقوا على أن همّ

امرأة العزيز: كان بالمعصية ، واختلفوا حول همّ نبىّ اللّه يوسف عليه السلام ، فمن قائل يقول : إنها همّت به تقصد المعصية ، وهمّ بها يقصد المعصية ولم يفعل .

ومن قائل : إن الهمّ بينهما كان قبل هذا الحادث كان حركة نفسية داخل نفس يوسف فى السن التى اجتاز فيها فترة المراهقة .

(وقد فنّد العلماء المحققون هذه التأويلات الباطلة من وجوه :

١ــ إنّ الهم لا يكون إلا بفعل للهام ، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تهم به، وإنما نصيبها منه قبوله ممّن يطلبه منها بتمكينه منه .

٢ــ إن يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتىّ يسمىّ قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه همّا لها ، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدّماته .

٣ــ إنّه لو وقع ذلك لوجب أن يقال : (ولقد هم بها وهمت به) ؛ لأن الهّم الأوّل هو المقدّم بالطبع وهو الهّم الحقيقى ، والهّم الثانى متوقّف عليه .

٤ــ إنه قد علم من هذه القصّة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلبا جازما ومصرة عليه ، فلا يصح أن يقال : إنها همّت به ، إذ الهم مقاربة الفعل المتردّد فيه ، بل الأنسب فى معنى الهّم هو ما فسرناه به أولا ، وذلك لإرادة تأديبه بالضرب، وقد رووا هنا أخبارا من الإسرائيليات عن تهتك المرأة وتبذّلها مما لا يقع مثله من أوقح الفسّاق الذين تجرّدوا من جلابيب الحياء فضلا عمن ابتلى بالمعصية أوّل مرة من سليمى الفطرة الذين لم تغلبهم ثورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطرى وحيائهم من نظر ربهم إليهم) [1] .

والخلاصة : أنّ الفارق بين همها وهمّه : أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها إذ فشلت فيما تريد ، وأراد هو الاستعداد للدفاع عن نفسه ، وهمّ بها حين رأى أمارة وثوبها عليه ، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربّه وعصمته ما لم تر مثله ، إذ ألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى به تتم حكمته فيما أعدّه له ، فاستبقا باب الدّار وكان من أمرهما ما يأتى بيانه فى سياق الآيات القرآنية الساردة لهذه القصة ، هذه خلاصة رأى نقله ابن جرير ، وأيّدهُ الرازى، وأبو بكر الباقلانى وهناك تفسير آخر للحادثة يرى أن فى الآية تقديمًا وتأخيرًا ، قال أبو حاتم :كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة ، فلما أتيت على قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ**

(١) تفسير المراغى ٤ / ١٣١ ، بتصرف قليل .

﴿ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : ٢٤] قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير بمعنى ولقد همّت به . . ولو أن رأى برهان ربّه لهمّ بها .

النفسية :

« فمن هم بحسنة . . . . » إلخ الحديث .

من خلال هذا الحديث النبوّى الشريف يتبين لنا أن ما يقع فى النفس من قصْد للمعصية أو الطاعة له خمس مراتب ، منها ما لا أجْر فيه ولا وزر ، ومنها ما لا إثم فيه ويثبت فيه الثواب وهى على هذا النحو كما رتّبها بعضهم فى قوله :

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا فخاطر فحديث النفس فاستمعا

يليه همّ فعزم كلها رفعت سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

أولا : الهاجس : وهو ما يلقى فى النفس ويمر مرّ السحاب ، ولا يؤاخذ به إجماعاً ؛ لأنه ليس من فعل العبد وإنما هو وارد لا يستطيع دفعه .

ثانيا : الخاطر : وهو جريانه فيها فيركن قليلا ثم يذهب .

ثالثا : حديث النفس : وهو ما يقع فيها من التردّد هل يفعل أم لا .

رابعا : الهم : وهو خطور الشىء بالبال وترجيح فعله بدون تصميم ، وفى هذه المرتبة تفرق الحسنة والسيئة فالحسنة تكتب به ، والسّيئة لا تكتب للحديث « وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة » .

خامسا : العزم : وهو قوّة القصد والعزم به ويدوم فى النّفس ويستريح إليه صاحبها .

وأكثر المحققين على المؤاخذة به وممّن قال بذلك القاضى أبو بكر ، قال القاضى عياض فى الإكمال : عامّة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين على ما ذهب إليه القاضى أبو بكر .

وقال ابن المبارك : سألت سفيان الثورى : أيؤاخذ العبد بالهمّ ؟ فقال : إذا كانت عزْما أوخذ، واستدلوا بنحو قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] . وبنحو قول النبىّ ﷺ : « الإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

وحملوا قوله ﷺ : « إن اللّه تجاوز لأمتى عمّا حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل » على الخطرات : وقالوا : ما أكنّه العبد وعقد عليه قلبه فهو من كسبه وعمله فلا يكون معفّوا عنه .

كيف عالج الإسلام الهواجس النفسية ؟ :

١ ــ أمرنا بالاستعاذة باللّه من الشيطان الرّجيم قال تعالى : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] .

فإذا حدثتك نفسك بما تستعظم ذكره فاعلم أنّ ذلك هو تلبيس إبليس ، وحربٌ من حروبه على عقيدتك ومن ثمّ بادر بالاستعاذة باللّه منه لتحصّن قلبك من مكايده ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربّك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ باللّه ولينته»(١) .

٢ ــ وليؤكد النبىّ الكريم عليه الصلاة والسلام أن هذه الوساوس لا تضرُّ المؤمن مادام مستعيذا باللّه ، اعتبرها محض الإيمان ما دامت النفس تدفعها ولا يقر قرارها وهى تجول فى الخاطر حتى يردّها عن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال : سئل رسول اللّه ﷺ عن الوسوسة قال : « تلك محض الإيمان » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق السماء ؟ من خلق الأرض ؟ فيقول : اللّه ، فمن وجد من ذلك شيئا فليقل :آمنت باللّه ورسوله » (٣) .

وعن أنس بن مالك،عن النبىّ ﷺ قال: «قال اللّه ــ عز وجل ــ : إن أمتك لا يزالون يقولون : ما كذا ما كذا حتى يقولوا : هذا اللّه خلق الخلق فمن خلق اللّه»(٤).

فقه الدعوة

لا نجاح للدّعوة إلا إذا قرن أصحابها بين الأسْلوبَيْن : الترغيب والترهيب ، وهنا تبرز الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن . . . وتظهر نتائجها . . . ولكن تبقى هذه الوسائل قوالب فحسب إذا كانت بمنأى عن المضامين أو المادّة الخامّة التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾[يوسف:١٠٨].

إنّ البعض من رجال الدعوة اليوم يملكون الكثير من المادّة الأساسية ، أى أنّهم

(١)رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود . (٢)رواه مسلم .

(٣ ، ٤)رواهما البخارى ومسلم .

على بصيرة من دينهم ويتمتّعون باطلاع واسع على الأحكام الفقهية والعقائدية . . . بل ويحفظون المصنفات من الأمّهات .

ولكنهم ينادون علنا جهارا : ما للّه للّه ، وما لقيصر لقيصر ، وهم فى هذا لا يخشون حاكما جبّارا ، ولا يرجون له عزّا ولا وقارا بل عن حسن نيّة وصفاء طوّية ، فهم يرفعون أصواتهم ويصرفون أوقاتهم لتحكيم كتاب اللّه ، الذى لا يفهمون منه إلا قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾ [النساء : ١٠٣] ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة : ٣٨] ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ [النور : ٢] .

وهؤلاء وإن كانوا على بصيرة من أحكام دينهم فليسوا على بصيرة من دعوتهم ، وضررهم على الإسلام أكبر من نفعهم ، وإليهم يسعى الرؤساء والأمراء فتراهم يتصدّرون مجالس الإفتاء الرّسمى فتزل أقدام الكثرة الكثيرة منهم ، فينقلبون إلى فبركة الفتاوى وصياغة الأدعية لولىّ الأمر وأمير المؤمنين الأمين . . . فهم فى سخط اللّه وسخط من أرضوهم فى سخطه تعالى .

وترى طائفة أخرى لا تملك من الدعوة إلا اللحى المسدلة والثياب الصّوفية تجوب أرجاء أوربا خاصة وأمريكا ، وليس لها من الزّاد إلا النيّة الطيبة والوجه البشوش . . . وهذه وإن كثرت من أتباعها وأقول : أتباعها فلم تكثر فى الإسلام شيئا .

ولقد حاورت الكثير من أتباع هذه الطائفة التى لم أكن أحمل أى فكرة مسبّقة ضدّها ، لأنّى أمقت التحيز والتعصب والانتماء الحركى للانتماء ! حتى يصبح الرجل داعية لجماعته لا لدينه ويتكرّس فى ذهنه : أن الصّديق هو من كان داخل حركته وعدوه من كان خارجها .

قلت :حاورتهم فى كثير من مساجد فرنسا حيث يفدون من شتى بقاع العالم ، والحق يقال : إنهم يتجشمون الصعاب ويتحملون الأتعاب فلم أجد عندهم إلا عواطفهم . . . حتى أن قائدا من قادتهم قال بالحرف الواحد : أنّ الصحابة كانوا يدعون بنياتهم فقط .

ومن مصائب الدّعوة الإسلامية أيضا فى هذا العصر أنها ابتليت بفرقة تنفر أكثر ممّا تبشّر ، وتشوّه ولا تصحّح فضررها معلوم ونفعها معدوم . . . فهى تخاطب الناس من أبراج عالية وتنظر إليهم نظرة استعلاء ، نظرة الصالح للطالح ، والسيد للعبيد وتكرّر على مسامع الناس أن العالم كله فى ضلال . . . واضمحلال . . . وأنهم هم ربان

سفينة الخلاص ولا يملكون إلا الفضاضة والغلظة فى الخلق والقول .

أما كان الأجدر بهؤلاء جميعا ممّن نصبوا أنفسهم دعاة حماة أن يستقوا الحكمة والموعظة الحسنة والعلم الصحيح من النبّع الصافى والمعين الذى لا ينضب القرآن الكريم، وأن يقتدوا بإمام المرسلين الأسوة الحسنة ــ صلوات ربىّ وسلامه عليه .

وأن يستقرئوا تاريخ اللآلئ المضيئة والدّرر المنيرة من علماء الإسلام ليعلموا أن الدعوة ليست نية فحسب . . . ولا تبسم فقط . . . ولا علم وثقافة مجردة . . . وهذا الإمام النّووى الجهبذ يبرز لنا تعليقه على هذا الحديث ما يتمتع به من فقه للغة ، ودراية بالحديث ، وإحاطة بأساليب التشويق والترغيب والتحبيب :

فانظر يا أخى ــ وفقنا اللّه وإيّاك ــ إلى عظيم لطف اللّه تعالى بعبده وتأمّل هذه الألفاظ ، وقوله : عنده إشارة إلى الاعتناء بها وقوله : كاملة ؛ للتأكيد وشدة الاعتناء بها ، وقال فى السيئة التى هم بها ثم تركها : كتبها اللّه عنده حسنة كاملة ، فأكدها بكاملة وإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فأكد تقليلها بواحدة ، ولم يؤكدها بكاملة ، فللّه الحمد والمنّة، سبحانه لا نحصى ثناء عليه وباللّه التوفيق .

تطبيق

ممّا سبق عرفنا أن مكّة المكرمة ، أو بالأحرى الحرم المكّى هو المكان الذى تتضاعف فيه الطاعات والسّيئات كذلك لقوله تعالى : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

قال ابن عمر : الفسوق إتيان معاصى اللّه فى الحرم .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج : ٢٥]، أى ومن يرد أن يعدل عن الاستقامة ويميل إلى الظلم فى المسجد الحرام يكون مصيره العذاب الموجع، وكان جماعة من الصحابة يتقون سكنى الحرم خشية ارتكاب الذنوب فيه: منهم ابن عباس وعبد اللّه بن عمرو بن العاص، وكذلك كان عمر بن عبد العزيز يفعل، وكان عبد اللّه بن عمرو بن العاص يقول: الخطيئة فيه أعظم ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قال : لأن أخطئ سبعين خطيئة ــ يعنى بغير مكة ــ أحبّ إلىّ من أخطئ خطيئة واحدة بمكة .

وعن مجاهد قال : تضاعف السّيئات بمكة كما تضاعف الحسنات. وقال ابن جريج: بلغنى أن الخطيئة بمكة بمائة خطيئة ، والحسنة على نحو ذلك ، وقال إسحاق بن منصور : قلت لأحمد فى شىء من الحديث : إنّ السيئة تكتب بأكثر من واحدة ؟ قال:

لا . ما سمعنا إلا بمكة لتعظيم البلد ، ولو أن رجلا بعدن أبين هم ، وقال إسحاق بن راهويه كما قال أحمد .

وقال الضحاك : إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى ولم يعملها فتكتب عليه .

وروى السدّى عن مرة عن عبد اللّه بن مسعود قال : ما من عبد يهم بخطيئة فلم يعملها فتكتب عليه ، ولو هم بقتل الإنسان عند البيت وهو بعدن أبين أذاقه اللّه من عذاب أليم، وقرأ عبد اللّه : ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[الحج : ٢٥] (١). أوردت هذا كله لأستدل على كبير ما يقترفه بعض الحجاج اليوم داخل الحرم المكى من الجدال والخصام والسباب . . والاقتتال . . فنسأل اللّه السلامة والعافية .

(١)أخرجه الأمام أحمد وغيره .

obeikandl.com

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ **« إنّ اللّه تبارك وتعالى قال : من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنّوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه»** رواه البخارى ومسلم .

الحديث تفرد بإخراجه البخارى فى ــ باب التواضع ــ عن محمد بن عثمان بن كرامة قال: حدثنا خالد بن مخلد ، قال :حدثنا سليمان بن بلال قال : حدثنى شريك ابن عبد اللّه بن أبى نمر عن عطاء عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ : « إن اللّه تعالى قال: . . » الحديث ،وزاد فى آخره : « وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

دروس وعبر من كلام سيّد البشر

علم السلوك :

حقيقة الولاية والطّريق إليها :

الولى بصيغة فعيل : إمّا بمعنى فاعل؛ لأنه تولى اللّه بالطاعة والتقوى ، وإمّا بمعنى

عادى لى : آذى وليّا من أجل دعوته لدينى .

وليا : وردت كلمة « ولىّ » فى القرآن الكريم لمعان عدة :

١ ــ جاءت بمعنى : الولد فى قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي ﴾ [مريم :٥، ٦] .

٢ ــ وجاءت بمعنى : الصاحب من غير قرابة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١] .

٣ ــ « القريب » كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ [الدخان:٤١] أى : لا يغنى ولا ينفع الكافر قريبه الكافر .

٤ ــ العصبة : كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ [مريم :٥] .

٥ ــ الولاية فى الدين كقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة :٥١] .

وقال ابن حجر فى الفتح: المراد بولىّ اللّه العالم باللّه تعالى المواظب على طاعته، المخلص فى عبادته.

آذنته : أعلمته .

بالحرب : بأن أنتقم منه سريعا .

كنت سمعه : أى حافظ سمعه ، وبصره ، ويده .

مفعول؛ لأن اللّه تولاه بالحفظ والهداية . والولىّ من الولى وهو القرب ؛ يقال : تباعد بعد ولى ، أى بعد قرب والولىّ بالمعنى العام : هو المؤمن لقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وبالمعنى الخاص هو كل من اتقى اللّه عز وجل فواظب على الطاعات واجتنب المنهيات ، وأعرض عن المشتبهات ، وقد أفاضت الآيات القرآنية فى وصف الولى وبيان حقيقته منها قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [المائدة : ٥٥ ، ٥٦] .

كما ورد وصف حالهم فى الدنيا وبشارتهم وأمنهم فى الأخرى فى قول الحقّ سبحانه : ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ﴾ [يونس : ٦٢ ــ ٦٤] .

وفى قوله أيضا : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٠ ، ٣١] .

ومن خلال استعراضنا لما سبق من الآيات القرآنية التى بينت حقيقة الولىّ وصفاته من الإيمان والتّقوى ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، واستقامة فى العقيدة ، وفى السلوك والأخلاق . يتبين لنا أنّ الولاية شىء مكتسب (١) ، ما دام الطريق إليها مبين فمن سلكه واتصف بصفات الولاية فقدّم الولاء المطلق للمَوْلى ــ عزّ وجل ــ وتبرأ ممّا عداه كان وليّا ولوْ لم يتعمم بالعمامة الخضراء ، ولم يطلع عليه أحد للحديث : « رب أشعث أغبر . . . » إلخ .

درجات الأولياء :

« وما تقرّب إلىّ عبدى . . . ولا يزال » .

وفى هذا الحديث بيان لدرجتى الولاية :

أولهما : الأوْلياء المقرّبون إلى اللّه بأداء الفرائض وهم المقتصدون : ﴿ **وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾ [فاطر:٣٢] وهؤلاء قد اختاروا السبيل الأفضل لقول عمر

(١) كل ذلك بتوفيق اللّه تعالى .

ابن الخطاب رضى اللّه عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض اللّه ، والورع عمّا حرّم اللّه، وصدق النيّة فيما عند اللّه تعالى .ولقول عمر بن عبد العزيز فى خطبته : أفضل العبادات أداء الفرائض واجتناب المحارم .

ثانيهما : والدّرجة الثانية هى درجة الأولياء السابقين وهم الذين سلكوا الطريق الأكمل حيث تقربوا إلى اللّه بعد الفرائض بالاجتهاد فى النوافل، والابتعاد عن المكروهات خوف الوقوع فى المحرمات .

أولياء الله أحباؤه :

إن محبّة اللّه لعبده جزاء مترتّب على تقرّب العبد لربّه ؛ لقوله تعالى فى هذا الحديث القدسى : « ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه » .

والحبّ ينبثق عن الإعجاب بالمحبوب غالبا ، غير أن محبّة المؤمن تمتاز بالعمق والاقتناع ، وأهم شىء فى هذا الكون يلفت الأنظار ويشد الأبصار هو ذلك الجم الهائل من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة الناطقة بعجيب صنع خالقها الذى أتقن كل شىء : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ؛ لهذا فإن قلب المؤمن عامر بحبّ اللّه قبل كل شىء لأنه عرف اللّه كما يجب أن يعرف .

ومحبّة اللّه ليست هياما وشغفًا ولا ادعاء فارغا، بل لها دلائل تثبت صدق صاحبها، ولوازم تدل عليها :

أ ــ طاعته تعالى وامتثال أمره ، والانتهاء عند نهيه .

ب ــ اتباع الرسول ﷺ : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

جـ ــ أن يكون حبه للّه تعالى فوق أى اعتبار ، وأولى من المصالح والأهل ، والأولاد، والعشيرة ، والأموال، قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [التوبة : ٢٤] .

نتائج محبة الله لوليه :

من نتائج محبّة العبد لربّه محبّته تعالى لعبْده ، وتتمثّل محبتّه كما ورد فى الحديث القدسى فيما يلى :

١ ــ « كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده . . . ورجله».

والمعنى إمّا بتقدير مضاف ، أى :حافظ سمعه ، وحافظ بصره ، وحافظ يده ، ورجله ، وحفظها ، أى :صونها عن الوقوع فى المعاصى . أو أنّ إيمان المؤمن وإحسانه يصلان به إلى مراقبة اللّه فى كل حركة يتحرّكها فلا تملك جارحة من جوارحه أن تتحرّك إلا فيما يرضى اللّه ــ عز وجل ــ ومن هذا قول بعض السلف كسليمان التيمى: إنّه لا يحسن أن يعصى اللّه . وقول على بن أبى طالب ــ كرم اللّه وجهه ــ : إنا كنّا نرى أن شيطان عمر ليهابه أن يأمره بالخطيئة .

٢ ــ « ولئن سألنى لأعطينّ ولئن استعاذنى لأعيذنّه » . « إن دعانى أجبته ، وإن سألنى أعطيته » .

ولقد نقلت إلينا كتب التاريخ والسير أمثلة حيّة عن الكثير من السّلف الصّالح المعروفين بإجابة الدعوة ، غير أنهّم لم يستغلوا هذه الكرامة للاستكثار من متاع الدّنيا وكنوزها فهم عنها عازفون وما سألوا شيئا أكثر من سؤالهم حبّ المولى ــ عز وجل .

فكان سيدنا داود عليه السلام يقول فى دعائه : اللهّم إنّى أسألك حبّك وحبّ من يحبك وحب العمل الذى يبلغنى حبّك ، اللهم اجعل حبك أحبّ إلىّ من نفسى وأهلى ومالى ومن الماء البارد .

وروى عن النبىّ ﷺ أنه كان يدعو: « اللهم اجعل حبّك أحبّ الأشياء إلىّ ، وخشيتك أخوف الأشياء عندى ، واقطع عنّى حاجة الدنيا بالشّوق إلى لقائك ، فإذا أقررت أعين أهل الدّنيا من دنياهم فأقرّ عينى من عبادتك » .

والأمثلة على استجابة الدعاء من الأولياء لا حصر لها ، ولا بأس من ذكر ما تيسّر ففى الصحيح : أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية جارية فعرضوا عليهم الأرش فأبوا ، فطلبوا منهم العفو فأبْوا ، فقضى بينهم رسول اللّه ﷺ بالقصاص ، فقال أنس بن النضر : أتكسر ثنية الربيع ؟ ! والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها ، فرضى القوْم وأخذوا الأرْش ، فقال رسول اللّه ﷺ :« إن من عباد اللّه من لو أقسم على اللّه لأبره» .

وفى صحيح الحاكم عن أنس عن النبىّ ﷺ قال : « كم من ضعيف متضاعف ذى طمرين لو أقسم على اللّه لأبّره ، منهم البراء بن مالك » .

وفعلا كان له ذلك حيث لقى زحفا من المشركين ، فقال له المسلمون : اقسم على ربك فقال : « أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم » ، فمنحهم أكتافهم ، ثم التقوا

مرّة أخرى ، فقالوا : اقسم على ربّك ، فقال : أقسمت عليك يا ربّ لما منحتنا أكتافهم وألحقنى بنبيّك ﷺ فمنحوا أكتافهم وقتل البراء .

العقائدية :

« من عادى لى وليّا » .

إن بغض الروافض وغلاة الشيعة للخليفة أبى بكر الصديق هو معاداة لوليّ من أفضل أولياء اللّه ؛ لأن الإيمان بهذا التفضيل مما يجب اعتقاده والجزم به كما قال صاحب منظومة: ترغيب المريد السالك فى مقدمة كتابه :

وأفضل الخلق جميعا أحمد صلى عليه اللّه نعم السّيد

وبعده الخليل فالمكلم فنوح فالروح أولو العزم هم

فالرسل ثم الأنبياء ثم الملك الخاص فالصديق ثم ذو النسك

(فالصّديق : أى ويجب الإيمان بأن أفضل الخلق من الأمم السّابقة واللاحقة بعد من ذكر من الأنبياء وخواصّ الملائكة أبو بكر الصّديق خليفة رسول اللّه ﷺ وصاحبه فى الغار . . . . .) (١) .

وقد ورد فى مناقبه الكثير ويكفيه شرفا أنه المعنى بقوله تعالى : ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وهو أوّل من دخل إلى الإسلام من الرجال، وصهر رسول اللّه ﷺ وخليفته من بعده، عن أبى سعيد رضى اللّه عنه قال : خطب رَسول اللّه ﷺ النّاس وقال :« إن اللّه خيّر عبْدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند اللّه » قال : فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه فكان رسول اللّه ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به ، فقال رسول اللّه ﷺ :« إنّ من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا غير ربّى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودّته ، لا يبْقين فى المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبى بكر » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال:« أتانى جبريل ــ عليه السلام ــ فأخذ بيدى فأرانى باب الجنّة الذى تدخل منه أمّتى « فقال أبو بكر : يا رسول اللّه وددت أنى كنت معك حتى أنظر إليه فقال رسول اللّه ﷺ : « أما إنّك يا أبا بكر أوّل من يدخل الجنّة من أمتى » (٣) .

---

(١) سراج السالك شرح أسهل المدارك ٢ / ٣٢ .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) رواه أبو داود .

وعنه عن النبىّ ﷺ قال : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه اللّه به يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر»(١) .

وعن ابن عمر ــ رضى اللّه عنهما ــ عن النبىّ ﷺ أنه قال لأبى بكر : « أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار »(٢) .

وعن عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ قالت : دخل أبو بكر على رسول اللّه ﷺ فقال: «أنت عتيق اللّه من النّار »(٣) قالت : فمن يومئذ سمّى عتيقا .

وعنها عن النبىّ ﷺ قال: « لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره »(٤) .

ولو لم يكن لأبى بكر من هذا الفضل إلا صحبة الرسول الأعظم ﷺ لكفته شرفا وفخرا ، فهلا عرف الحاقدون على أبى بكر لصحبته فضلا ؟ !

عن عبد اللّه بن مغفّل رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « اللّه اللّه فى أصحابى، اللّه اللّه فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبّهم فبحبّى أحبّهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى اللّه ومن آذى اللّه فيوشك أن يأخذه »(٥) .

« . . . فقد آذنته بالحرب . . . » .

طبيعة الحرب أنها لا تتأتى من جانب واحد مع أن المخلوق فى قبضة الخالق لا حول له ولا قوّة ؛ فالتعبير هنا إذًا ليس على حقيقته بل من باب المخاطبة بما يفهم ، ومن باب إطلاق الشىء وإرادة لازمه . فأطلق الحرب وأراد بها لازمها وهو الإهلاك ، أى أن الذى يعادى وليّا من أولياء اللّه لولايته متعرّض لإهلاك اللّه له لا محالة .

« . . . كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » .

لقد اتخذت بعض الطرائق الصوفية الضالة هذا الحديث مطية إلى تحقيق أهوائها الضالة ومحاولة التدليل على ما تعتقده من الاتّحاد والحلول .

غير أن شرح الحديث لا يكون بمعزل عن القرآن الكريم الذى أجلى الأصول وأرساها ، ومما جاء فى تأويلهم الباطل ما نقله الشبرخيتى فى شرحه للأربعين النووية ما نصه : (وحمله بعض متأخّرى الصوفية على ما يذكرونه من مقام الفناء والمحو ، وأنه الغاية التى لا شىء وراءها .وهو أن يكون قائما بإقامة اللّه تعالى له محبا لمحبته له،

(١ ــ ٥) رواها الترمذى .

ناظرا بنظره له من غير أن يبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بأمر أو توصف بوصف) (١).

ومع وضوح هذا الإلحاد يأتى من يدافع عنه ويتخذ له تأويلات وتصريفات ولأهله الأعذار فيقول قائلهم : (وما وقع فى عبارات بعض العارفين مما يوهم ذلك فليس مرادًا لهم وفهم ذلك منه من قصور فهم النّاظر ، وإلا فهم مطهّرون من ذلك الاعتقاد الفاسد كما طهّرهم اللّه تعالى بكمال محبّته من سائر المفاسد) (٢).

وانظر إلى هذا التحكم : (وزعم الاتحادية والحلولية أن الحديث على حقيقته ، وأن الحق عين العبد أو حال فيه ، فهو ضلال مكفّر إجماعا ويرد حملهم قوله فى بقية الحديث : «ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنّه ») (٣).

« كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبْصر به . . . » .

وجاء فى بعض الروايات: «فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى» أى أنا أقدرته على هذه الأفعال وخلقتها فيه ، فأنا الفاعل لذلك ، وليس للإنسان أن يخلق أفعال نفسه بخلاف المعتزلة القائلين :إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية .

والجبرية المعتقدين : أن العبد مجبور كخيط معلق فى الهواء تميله الرياح حيثما توجهت فكلا المذهبين باطل ، قال صاحب الجوهرة :

فليس مجبورا ولا اختيارا ... وليس كلا يفعل اختيارا

وعقيدتنا نحن أهل السنّة فى ذلك ما قرره صاحب الجوهرة أيضا :

وعندنا للعبد كسب كلفا ... به ولكن لم يؤثر فاعرفا

فأفعال العبد وأقواله كلها مخلوقة للّه تعالى ، وإنما للعبد فيها نسبة الميل إلى الفعل أو الترك ؛ ولذا فهو مكلف يجازى عن الطاعات ويعاقب عن السيئات .

وجاء فى بعض الرّوايات : « وما ترددت فى شىء أنا فاعله تردّدى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

الموت الذى هو مفارقة الروح للجسد ، هذه المفارقة التى من أشد الآلام التى تصيب الحىّ فى الدنيا ، وقد وصفها بعض من احتضر بأوصاف تطير لها الأفئدة ، وتقشعر لهولها الأبدان .

---

(١) الشبرخيتى ص ٢٦٦ .

(٢) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان ٢/ ٦٥ .

(٣) الشبرخيتى ص ٢٦٦ .

قال عمر لكعب : أخبرنى عن الموت ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو مثل شجرة كثيرة الشوك فى جوف ابن آدم فليس منه عرق ولا مفصل ، وهو كرجل شديد الذراعين فهو يعالجها ينتزعها ، فبكى عمر .

ولما احتضر عمرو بن العاص سأله ابنه عن صفة الموت فقال : واللّه لكأن جنبى فى تخت، ولكأنى أتنفس من سم إبرة ، وكأن غصن شوك يجرّ به من قدمى إلى هامتى.

وقيل لرجل عند الموت : كيف تجدك ؟ فقال : أجدنى اجتذب اجتذابا ، وكأن الخناجر مختلفة فى جوفى ، وكأن جوفى فى تنّور محمى يلتهب توقدا .

وقيل لآخر : كيف تجدك ؟ قال : أجدنى كأن السموات منطبقة على الأرض علىّ، وأجد نفسى كأنها تخرج من إبرة .

الفقهية :

نستخلص من الحديث القدسى دروسا فقهية عديدة منها :

أولا : « من عادى لى وليا » درجت عادة كثير من المسلمين أنّه إذا مات فيهم العالم الصالح دفنوه فى المسجد الذى غالبا ما يكون من تأسيس هذا العالم ، أو من اشتغل بالعلم فيه لعمارته ؛ فهل هذا من قبيل اتخاذ القبر مسجدا الذى شدّد النبىّ ﷺ فى النهى عنه فى آخر حياته فى ما روته عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ : أن أم سلمة ذكرت لرسول اللّه ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها : مارية ، فذكرت له ما رأت فيها من الصّور فقال رسول اللّه ﷺ :« أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند اللّه تعالى » (١).

وعنها قالت : لما نزل برسول اللّه ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهوكذلك:«لعنة اللّه على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر مثل ما صنعوا (٢) .

قال العلماء : وإنّما نهى النبى ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مساجد خوفا من المبالغة فى تعظيمه لحد الافتتان به كما وقع لكثير من الأمم السابقة .

قال الإمام النووى: (ولما احتاج الصّحابة ــ رضوان اللّه عليهم ــ والتابعون إلى الزّيادة فى مسجد رسول اللّه ﷺ حين كثر المسلمون وامتدّت الزّيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيها ، ومنها حجرة عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ مدفن رسول اللّه ﷺ

(١ ، ٢)رواهما البخارى ، ومسلم .

وصاحبيه أبى بكر وعمر ــ رضى اللّه عنهما ــ بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدىّ إلى المحذور ، ثم بنوا جدارين على ركنى القبر الشّماليين وحرّفوهما حتى التقيا ، حتى لا يتمكّن أحد من استقبال القبر) (١) .

وهل النهى فى الحديث السابق عن اتخاذ القبور مساجد أو العكس أى اتخاذ المساجد على القبور ؟

ذلك ما اشتبه على الكثير غير أن أبا الفضل عبد اللّه بن الصّديق قد فصل القول فيه فى كتابه المسّمى : (إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة) ومما جاء فيه :

استدل الذين قالوا بكراهة بناء المسجد على القبر وهم الأكثر أو بمنعه بحديث : «لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . والحديث صحيح لكن الاستدلال به لقولهم غير صحيح :

١ ــ أن معنى اتخاذ القبور مساجد : الصّلاة إليها تعبّدا ، أو السجود لها ، وهذا غير بناء مسجد عليها كما هو ظاهر ، وقد تفطّن الكرمانى لهذا ، فإن البخارى ترجم بقوله : باب ما يكره من اتخاذ المسجد على القبر ، وروى فيه حديث : « لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قال الكرمانى : مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجدا ، ومدلول الترجمة : اتخاذ المسجد على القبر ، ومفهومهما متغاير ، ويجاب بأنهما متلازمان وإن تغاير المفهوم . ا.هـ .

وإيراده صحيح ، وجوابه بالتلازم بينهما ليس بصحيح ، بل لا وجود للتلازم بينهما أصلا ، لا فى اللغة ، ولا فى الشرع ، ولا فى الواقع .

٢ ــ أنّ عائشة لما روت قوله ﷺ : « لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » أعقبته بقولها : ولولا ذلك لأبرزوا قبره ، غير أنّى أخشى أن يتخذ مسجدا .

قال الحافظ فى الفتح : قولهما : لأبرزوا قبره ، أى : لكشف قبر النبى ﷺ ولم يتخذ عليه الحائل ، والمراد : الدفن خارج بيته ، وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوى ؛ ولهذا لما وسع المسجد ، جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة ، حتى لا يتأتى لأحد أن يصلىّ إلى جهة القبر ، مع استقبال القبلة . ا.هـ .

(١) النووى على مسلم ٥ / ١٣ ، ١٤ .

تبيّن من هذا أن اتخاذ القبر مسجدا معناه: الصلاة إليه والسجود له لا بناء مسجد عليه.

٣ ــ قال ابن سعد : أخبرنا علىّ بن عبد اللّه بن جعفر ــ هو ابن المدينى ــ أخبرنا سفيان ــ يعنى ابن عيينة ــ أخبرنا حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا ، لعن اللّه قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وقال أيضا : أخبرنا معن بن عيسى أخبرنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال :« اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب اللّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» .

وقال ابن أبى شيبة : حدثنا أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا يصلى له ، اشتد غضب اللّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن زيد .

فهذه الأحاديث صريحة فى أن اتخاذ القبر مسجدا معناه: الصلاة له تعبّدا والسجود له ، لا بناء مسجد عليه .

٤ ــ قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجّهون فى الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثانا ، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك فأمّا من اتخذ مسجدا فى جوار صالح ، وقصد التبّرك بالقرب منه لا التعظيم له ، ولا التوجّه نحوه ، فلا يدخل فى ذلك الوعيد .ا.هـ . نقله الحافظ فى فتح البارى .

وقال التوريشتى فى شرح المشكاة فى الكلام على حديث : « لعن اللّه اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » هو مخرج على وجهين :

أحدهما : كانوا يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لهم وقصد العبادة فى ذلك .

وثانيهما : أنهّم كانوا يتحرّون الصلاة فى مدافن الأنبياء والتوجّه إلى قبورهم فى حالة الصلاة والعبادة للّه؛نظرا منهم أن ذلك الصنع أعظم موقعا عند اللّه،لاشتماله على أمرين : عبادة ، والمبالغة فى تعظيم الأنبياء ، وكلا الطريقتين غير مرضية، أما الأولى: فشرك كلى ، وأما الثانية : فلما فيها من معنى الإشراك باللّه ــ عز وجل ــ وإن كان خفيا، والدليل على ذمّ الوجهين قوله ﷺ : « اللهمّ لا تجعل قبرى وثنا، اشتد غضب اللّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »والوجه الأوّل أظهر وأشبه .ا .هـ .

فتحصل من هذه الوجوه أن اتخاذ القبر مسجدا معناه : السجود له ، والصّلاة إليه .

والاستدلال به لمنع بناء المسجد على القبر أو كراهته خطأ ظاهر ، لتباين المعنيين وتغايرهما .

بقى أمر لابد أن ننبّه عليه ، وهو : إذا كان مسجدٌ مبنيا ثم دفن فيه ميت أو أدخل فيه قبر ، فلا يدخله الخلاف فى بناء المسجد على القبر ؛ لأنه لم يبْن عليه ، والدليل على ذلك أمور :

١ ــ قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عبد اللّه الأنصارى أخبرنا محمد بن محمد ابن عمرو ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، قالا : قال أبو بكر : أين يدفن رسول اللّه ﷺ ؟ قال قائل منهم : عند المنبر ، وقال قائل منهم: حيث كان يصلى يؤم الناس . وقال أيضا : أخبرنا معن بن عيسى ، أخبرنا مالك ابن أنس : أنّه بلغه أن رسول اللّه ﷺ لما توفى ، قال ناس : يدفن عند المنبر، فهؤلاء الناس لم يشيروا بدفنه ﷺ عند المنبر أو حيث كان يؤم الناس ، إلا لعلمهم بأن هذا لا يشغله بناء مسجد على قبر وهؤلاء كانوا صحابة .

٢ ــ وقال ابن حزم فى (المحلى) : قد أنذر عليه السّلام بموضع قبره بقوله : «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » . واعلم أنه فى بيته بذلك ، ولم ينكر عليه السلام كون القبر فى البيت ، ولا نهى عن بناء قائم وإنما نهى عن بناء على القبر قبة فقط . ا.هـ .

وحديث : « ما بين قبرى . . . » ، رواه البزار من حديث سعد بن أبى وقاص ورجاله ثقات، ورواه الطبرانى من حديث ابن عمر ، قاله الحافظ فى الفتح .

قلت : ورواه الخطيب فى (الموضح) من حديث أبى سعيد الخدرى ١ / ٤١٩ . ورواه البزار من حديث على وأبى هريرة وإسناده ضعيف ، ومعنى الروايتين واحد فإن قبره فى بيته ؛ ولهذا ترجم البخارى فى صحيحه باب فضل ما بين القبر والمنبر .

وروى الحديث بلفظ : « البيت » والحديث يدل على فضل هذا المكان ، وفضل الصلاة فيه وهو يومئ إلى جعله مسجدا يصلى فيه ، كما هو حاصل الآن .

٣ ــ أن القبر الشريف أدخل فى المسجد النبوى ، فى عهد الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز ولم يغير عمر ذلك فى خلافته بأن يفصل بين الحجرة الشريفة والمسجد بجدار ، ولم يفعل ذلك خلفاء بنى العباس ولا أرشدهم إليه أحد ،

مع كثرة من زار المسجد النبّوى من الأئمة والحفاظ والفقهاء والزّهاد وغيرهم ، وكان الإمام مالك مسموع الكلمة عند المنصور ولو أشار عليه بإقامة حاجز بين القبر والمسجد لفعله .

وما ذلك إلا لأن إدخال قبر فى مسجد ليس كبناء المسجد عليه ، وهو فى المسجد النبّوى إجماع من الأمّة بجميع طبقاتها والنبىّ ﷺ يقول : « لا تجتمع أمتى على ضلالة» وباللّه التوفيق (١) .

ثانيا : « . . . وما تقرّب إلى عبدى بشىء أحب إلى ممّا افترضته عليه . . . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل . . . . » .

١ــ تعريف الفرض فى المصطلح الفقهى ــ عند المالكية ــ : هو ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه ، أو ما يمدح فاعله ويذّم تاركه ، والعبرة بمدح الشارع أو ذمّه .

ــ والنفل هو : ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه .

والنفل فى اللغة : الزّيادة ، والمراد به هنا ما زاد على الفرض وعلى السّنة وعلى الرغيبة، وتتعلق بالنفل أحكام تطلب فى مظانها ، ونقتصر هنا على هذه اللطيفة ، قال ابن دقيق العيد : فى تقديم النوافل على الفرائض وتأخيرها عنها معنى لطيف مناسب ، أما فى التقديم فلأن النّفوس لاشتغالها بأسباب الدنيا بعيدة عن حالة الخشوع والحضور التى هى روح العبادة ، فإذا قدمت النوافل على الفرائض أنست النفس بالعبادة وتكيفت بحالة تقرب من الخشوع ، وأمّا تأخيرها عنها فقد ورَد أن النّوافل جابرة لنقص الفرائض فإذا وقع الفرض ناسب أن يقع بعده ما يجبر الخلل الذى يقع فيه .

٢ ــ « . . . من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب . . » .

سبق وأن قلنا : إن المؤمن يوالى أولياء اللّه ويتبرأ من أعدائه فلا يتولاهم ؛ لأنه بولائهم سيكون منهم لقوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ٥١] .

إذًا فمن اتخذ عدوّا من أعداء اللّه وصافاه فقد باء بإثم عظيم ، ومن هذا المنطلق يجب علينا أن نبيّن ما يلى :

أ ــ ليس من الولاء أن يدخل المسلم فى حماية غير المسلمين إذا دعت الضرورة الأمنية إلى ذلك كدخول المهاجرين الأوّلين إلى الحبشة تحت حكم النجاشى وحمايته،

---

(١) إتقان الصنعة فى تحقيق معنى البدعة ، لأبى الفضل عبد اللّه بن الصّديق الغمارى .

وكدخوله ﷺ مكّة فى حماية المطعم بن عدى حين عودته من الطائف عام الحزن .

ولكن ذلك بشرط ألا يكون فى ذلك مساس بالعقيدة ، ولا على حساب الدعوة إلى هذا الدين ، وأنت ترى موقف النبىّ ﷺ الجلى من عمّه حينما عرض عليه ما عرضت قريش .

ب ــ حكم الاستعانة بغير المسلمين فى القتال :

ذهب جمهور كبير من العلماء إلى أنه لا يجوز الاستعانة بالكفّار فى القتال ودليلهم على ذلك قول النبىّ ﷺ : « لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك » . حينما اقترح عليه بعض الأصحاب الاستنصار باليهود فى غزوة بدر طبقا للمعاهدات التى كانت بينهم وقد روى مسلم أن النبىّ ﷺ قال لرجل تبعه فى يوم بدر ليقاتل معه : « أتؤمن باللّه؟» قال : لا، قال :« فارجع فلن نستعين بمشرك ».

جـ ــ حكم الاستعانة بالمشركين فيما دون القتال :

لقد استعان النبىّ ﷺ ببعض أفراد المشركين فيما دون القتال كاتخاذهم عيونا وجواسيس، أو أدلاء ، وعلى كل فالاستعانة من هذا الباب تبعا لحال المستعان به بحيث يكون ممن يطمأن إليه .

فقد استعان النبىّ ﷺ فى صلح الحديبية ببشر بن سفيان من قبيلة خزاعة ليأتيه بخبر أهل مكة .

كما استعان بأسلحة صفوان بن أمية فى غزوة أحد ، وكان صفوان فى موقف الضعف لا القوّة حيث سأل صفوانُ نفسه : أغصبا يا محمّد ؟ ! فأجابه النبىّ ﷺ: « بل عارية وهى مضمونة حتّى نؤديّها إليك » .

وفى هجرته مع الصدّيق استأجر رجلا من المشركين وهو عبد اللّه بن أريقط كدليل يدلهما على الطرق الخفيّة إلى المدينة بعد أن اطمأن إليه ، وعلى هذا فالاستعانة فى غير الحرب جائزة .

الاجتماعية :

« . . . من عادى لى وليّا . . . » .

إنّ مفهوم هذه العبارة أنه من والى عدوّ اللّه فقد أذنه اللّه بحرب أيضا .

واليهود والنصارى من ألدّ أعداء اللّه بحكم طبائعهم التى وصفهم القرآن بها ، وأثبتتها لهم الأحداث التاريخية المتتالية بدءا من عهد الرسالة الخالدة وما كابده صاحبها

عليه الصلاة والسلام منهم إلى عصرنا الحاضر الذى هو شاهد عليهم ، ومن ثمّ فموالاتهم على حساب المؤمنين تعتبر خيانة كبرى ، ومخالفة للتوجيهات الإسلامية ، وهذا القرآن الكريم يبيّن لنا السّبب فى ذلك :

١ ــ لأنهم أعداء اللّه ، وبالطبع فمن عادى صاحب الفضل الأكبر عليه وولىّ نعمه لا يكبر عليه أن يعادى الناس أجمعين ، وعداوتنا لهم ليست تهيّجا عاطفيا ، وتشنّجا عصبيا بل هى من قبيل معاداة أعداء اللّه فحسب قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ** ﴾ [الممتحنة : ١] .

٢ ــ ومن والاهم وناصرهم على المسلمين فهو منهم ، وقد أعلن الحرب على أولياء اللّه مع أعدائه ، قال تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٥١ ــ ٥٣] .

قال ابن جرير : إن اللّه تعالى نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنّصارى أنصارا أو حلفاء على أهل الإيمان باللّه ورسوله ، وأخبر أن من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًا من دون اللّه ورسوله فهو منهم فى التحزّب على اللّه ورسوله والمؤمنين ، وأن اللّه ورسوله منه بريئان إلى أن قال : غير أنه لا شك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر ؛ لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك . ا.هـ .

وكان ذلك حينما حاصر رسول اللّه ﷺ بنى قينقاع مدة من الزمن حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد اللّه بن أبى بن سلول فقال : يا محمّد أحسن فى موالىّ فلم يلتفت إليه رسول اللّه ﷺ ،وكرر ثانية فأعرض عنه رسول اللّه ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال له :« ويحك أرسلنى»، قال: لا واللّه لا أرْسلك حتى تحسن فى موالىّ : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى

غداة واحدة ؟ إنّى واللّه امرؤ أخشى الدّوائر ، فقال له رسول اللّه ﷺ: «هم لك». وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام وهلك أكثرهم فيها .

وكان لعبادة بن الصّامت من المحالفة مع هؤلاء اليهود مثل الذى لعبد اللّه بن أبىّ فمشى إلى رسول اللّه ﷺ قائلا : إنّى أتولى اللّه ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفّار وولايتهم .ا . هـ (١).

إذًا خلص لدينا أن من والى اليهود أو النصارى على المؤمنين فهو منهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ** ﴾[الحشر : ١١] .

وهؤلاء هم الذين يمثّلون الطابور الخامس فى الأمة الإسلامية وهم كثير يترصّدُون أحوال المسلمين وتحرّكاتهم ويتسمّعون أخبارهم ويسرون بها إلى من يوالونهم من أعداء الأمّة الإسلامية ، فقد أدّوا دوْر الأدلاء للاستعمار الغربى والمترجمين له وكانوا له عونا وسندا فى التنكيل بأبناء الإسلام ، واستلاب خيرات بلدانهم واستذلالهم كل ذلك ليستدرّوا عطف المستعمر الغاصب وليستجلبوا رضاه ولكن أنّى لهم ذلك والقرآن يبيّن : ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ ! ! [البقرة : ١٢٠] .

لقد استخدم العدوّ هذا الصنف من الناس كاستخدامه للآلة الحديدية ساعة صلاحها وأدائها لمهمتها الميكانيكية ، فإن تخلت عن أدائها لحظة لخلل مّا ، سارع باستبدالها على الفور ، وهكذا كان مصير الكثير فلم ينالوا رضا من والوْهُ ، ولا رضى عنهم أبناء جلدتهم وعقيدتهم وصدق اللّه إذ يقول :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا** ﴾ [آل عمران : ١١٨ ــ ١٢٠] .

٣ ــ إنّ التبرّء من موالاة المشركين وعدم مناصرتهم على المسلمين لا يمنع أبدا العدْل فيهم والإحسان إليهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ**

(١)فقه السيرة للبوطى ص ١٧٩ .

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٨] ، ولقوله تعالى:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨] .

روى أحمد عن عبد اللّه بن الزبير قال : قدمتْ قتيلة بنت عبد العزّى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا صناب ــ صباغ يتخذ من الخردل والزبيب ــ وأقط وسمن وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها، حتّى أرسلت إلى عائشة ــ رضى اللّه عنها ــ أن تسأل رسول اللّه ﷺ عن هذا فسألته فأنزل اللّه : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ ﴾ الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتُدخلها بيتها .

٤ ــ إذا كانت الحرب من اللّه تعالى فى جانب المعاداة ــ أى معاداة أولياء اللّه تعالى ــ فإن ضدّها ثابت فى جانب الموالاة .

فمن أحبّ أولياء اللّه فى اللّه حشر معهم ، ففى سنن أبى داود عن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن من عباد اللّه أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من اللّه تعالى » قالوا : يا رسول اللّه من هم ؟

قال : « هم قوم تحابّوا بروح اللّه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فواللّه إن وجوههم لنور ، وإنّهم لعلى منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم تلا هذه الآية : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] .

السياسية :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » .

١ ــ إنّ من ينصب العداء لأولياء اللّه وأىّ ولاية أقرب ممّن دعا إلى اللّه وعمل صالحا وقال : إننّى من المسلمين ، فهو محارب للّه ــ عزّ وجل ــ شأن الطغاة المتجبرّين الذين يسومون علماء الإسلام ودعاته ألوانا قاسية من التعذيب والتنكيل من تكميم الأفواه ، والزجّ فى غياهب السجون ، والتعذيب بالكرابيج والكهرباء .. و .. و .. مرورا بالاعتداء على المحارم ،وهتك الأعراض،والنفى ،والمتابعات ،والملاحقات... وانتهاء بالإعْدامات ، والاغتيالات .

هؤلاء الحكام وأتباعهم من كلاب النّار محاربون للّه ــ عز وجل ــ وحربهم الخاسرة هذه مدعاة إلى ذل أممهم ، وانهزام دُوَلهم ، وانكسار شوكتهم ، وانحسار نفوذهم ؛ روى الإمام أحمد فى كتاب الزّهد بإسناده عن وهب بن سنبه قال : إنّ اللّه

تعالى قال لموسى ــ عليه السلام ــ حين كلمه : « اعلم أن من أهان لى وليّا أو أخافه فقد بارزنى بالمحاربة وعادانى وعرّض نفسه ودعانى إليها وإن أسرع شيء إلىّ نصرة أوليائى ، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى ؟! أو يظن الذى يعادينى أنّه يعجزنى ؟! أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى؟! وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة، فلا أكل نصرتهم إلى غيرى ؟!».

وفوق هذا سوء خاتمتهم حيث قال بعض العارفين : إيذاء أولياء اللّه علامة على سوء الخاتمة ــ والعياذ باللّه .

كان الأجْدرُ بحكّام العالم أجمع وبأولى الأمر فى عالمنا الإسلامى على الخصوص أن يعتبروا بمن سبقهم فى حرب أولياء اللّه فهذا نمرود ، وفرعون ، وهامان ، وقارون، . . وأبو جهل ، وعتبة بن ربيعة ، والحجاج بن يوسف الثقفى . . والمأمون . . وغيرهم كثير .

٢ ــ قامت معاملة الإسلام لأهل الذّمة على قاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا). وليس هذا من الموالاة السابقة لأنها من قبيل : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

لأنّ الإسلام لم يكن حربا على اليهود ليهوديتهم ، أو النصارى لنصرانيتهم ولا على نياتهم المبيّتة ، بل على جهودهم المتضافرة للنيل من الإسلام والإطاحة بحكمه ، والاستهزاء بتشريعاته ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [المائدة : ٥٧] .

ويكفى دليلا على اهتمام الإسلام بأهل الذّمة وحرصه على صيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ما قاله سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام : « من قتل رجلا من أهل الذمّة لم يجد ريح الجنّة ، وإن ريحها توجد من قدر سبعين عاما » .

وكذلك قوله:« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه حقّه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وما حفظه التاريخ لقادة الفتح الإسلامى وخلفاء الإسلام بعد الرسول عليه السلام من حسن المعاملة والتعهّد والرّعاية لهذه الطوائف التى ساكنتهم الكثير .

فقد روى أبو يوسف فى كتاب الخراج أنّ عمر مرّ على قوم قد أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ، فقال : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له : إنهم أقيموا فى الجزية !

فكره ذلك ، وقال : هم وما يعتذرون به ، قالوا : يقولون : لا نجد . قال :

دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ثم أمر بهم فخلى سبيلهم .

وقال أبو يوسف : وحدث أنْ مرّ عمر بباب قوم وعليه سائل يسأل وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده ، وقال له : من أىّ أهل الكتاب أنت ؟

فقال : يَهُودىّ ، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟

قال : أسأل الجزية والحاجة والسّن ، فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله وأعطاه ممّا وجده ! ثم أرسل به إلى خازن بيت المال وقال له : انظر هذا وضرباءَهُ ، فو اللّه ما أنْصفناه إذْ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠]. والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ثم وضع عنه الجزية.

هذه مواقف عمر الإسلامية تجاه أهل الذّمة ، وهى بحق مواقف مشرّفة وشاهدة على ساسة العالم اليوم ، والغربى منه على الخصوص حيث تعانى الأقليات الإسلامية فيه جهود التمسيح والمسخ بل والإبادة .

روى يحيى بن آدم فى كتاب الخراج : أنّ عمر لما تدانى أجله أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله :

أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذّمة خيرا ، وأن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم .

وقد أعطى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عهدا إلى نصارى القدس عند فتحها ، وهو المعروف بالعهدة العمرية ونحن ننقل نصّه كما جاء فى تاريخ الطبرى (جـ٣ ص٦٠٩).

(بسم اللّه الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد اللّه : عمرُ أميرُ المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ؛ أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ؛ أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضارّ أحد منهم . ولا يَسْكُنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يُخرجوا منها الرومَ واللصوتَ ــ اللصوص ــ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بِيَعَهم وصُلبَهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم،

حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها أهل الأرض قبل مقتل فلان ــ هكذا ــ فمن شاء منهم قَعَد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يُحْصَدَ حصادُهم ؛ وعلى ما فى هذا الكتاب عهد اللّه وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة خمسة عشرة) .

كل ذلك استمده أمير المؤمنين عمر من مبادئ الإسلام السّمحة التى قررها القرآن الكريم وبينتها السنّة النبوية الحكيمة من ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال : نزلنا مع رسول اللّه قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين ، وكان صاحبُ خيبر رجلا ماردا متكبّرا فأقبل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا محمّد !لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا، وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول اللّه ﷺ لما حدث وقال :« يا بن عوف اركب فرسك، ثم ناد : إنّ الجنة لا تحل إلا لمؤمن ، وأن اجتمعوا للصلاة » فاجتمعوا، ثم صلى بهم، ثم قام فقال :

« أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن اللّه تعالى لم يحرّم شيئا إلا ما فى القرآن ، ألا وإنّى واللّه لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإنّ اللّه لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرْب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إن أعطوا الذى عليهم » .

فقه الدعوة

١ ــ تتفشى فى بعض أقطار العالم الإسلامى خرافات وأباطيل لا أصل لها تتعلق بالولاية والأولياء ، وتجد لها أنصارا ومصدّقين ومنافحين بل ومقاتلين ومدافعين لإثباتها فيتحدّثون عن الذى تنزّلت إليه ملائكة السّماء باللوح المحفوظ فيمحو منه ما يشاء ويثبت فيه ما يشاء : ــ أستغفر اللّه العظيم ــ ويحدثك آخرون عن دفاع صاحب القبر الفلانى عن أهالى البلدة وإبادته لأعدائها .

وتسمع عن صومعة مسجد الضريح التى سقط من علوّها الشاهق أناس لم يصابوا بأذى ، وهلم جرّا .

ومن البدهى أن معتقدات ضالة كهذه لا يعضدّها إلا الجهل والتعصّب ، وهنا تكمن براعة الداعية وفطنة حماة العقيدة فى الذّود عن جوهرها وإظهار نصاعتها وبساطتها مقابل زيف الخرافة ، وزغل أرباب البدع .

أتذكّر فى حداثتى أنّى كنت ألازم زيادة معلم من معلمى القرآن الكريم حيث آنس لحديثه وزهده وإرشاده . . حتى سمعته يحكى يوما أن ظالما متجبّرا ولكنه كان كريما ، شكاه مرة ضحية من ضحايا بغيه إلى اللّه تعالى ، فرأى فى منامه قائلا يقول له :

إنه ولىى وحبيبى فلا أضرّه ، وساعتها ضربت عن الإنصات لهذا الشيخ صفحا ، سبحان اللّه إلى هذا الحدّ تنحدر مداركنا ! .

إن تغيير هذه الضلالات لا يكمن فى هدم القباب وتسويتها بالأرض ، ولا بقلع الشجر وتفتيت الحجر كما يرى بعض الحمقى من مجسّمة عصرنا .

بل يكمن أساسا فى تقويض الاعتقادات الفاسدة فيها ؛ لأن الطيش والتهوّر لا يؤدّى إلا إلى نتائج عكسية . فقد عمد بعض الفتيان الأحداث إلى تحريق الأضرحة وهدمها ظنا منهم أن هذا سبيل إلى تغيير المنكر ؟ !

وليعلم هؤلاء وأمثالهم أن تصرفا طائشا كهذا لا يفقد ثقة العامّة فيمن تعتقد ولا يؤثر فى تقديسها وولائها له بل يزيدها علوقا ووثوقا .

لقد همنى فى بداية طريقى ما كنت ألحظهُ على مقربة من بيتنا حيث تنتصب حلقة نسائية كل ليلة خميس حول شجرة تحوم حولها الخرافات ، وتقرّب لها القرابين ، وتوقد لها الشموع فجندت لها بعض التلاميذ . . واقتلعناها من جذورها . . رغم التهديدات . . . وكنا نظن بحكم المرحلة أن كل شىء انتهى !

ولكن حدث ما لم يكن فى حسباننا . . حيث تطايرت الإشاعات فازدادت الشجرة قداسة ــ وهى مقطوعة ــ أكثر من ذى قبل ، وهكذا يجنى التهوّر ، وعدم الحنكة والحكمة على الإسلام من حيث يريد أصحابه الإحسان ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

٢ ــ كان الدّعاة المخلصون لا يستغلون استجابة اللّهّ لدعائهم فى ملذات فانية ، ومصالح عاجلة بل يتحلى بالصّبر ترقّبا للأجْر ، فقد روى أن سعد بن أبى وقّاص كان يدعو للناس لمعرفتهم له باستجابة الدعاء ، فقيل له : لو دعوت اللّه لبصرك ــ وكان قد أضر ــ فقال : قضاء اللّه أحبّ إلى من بصرى .

وابتلى بعض العارفين بالجذام فقيل له : بلغنا أنك تعرف اسم اللّه الأعظم ، فلو سألته أن يكشف ما بك ؟ فقال : يا بن أخى إنه هو الذى ابتلانى وأنا أكره أن أردّه .

وقيل لإبراهيم التيمى وهو فى سجن الحجاج : لو دعوت اللّه تعالى ؟ فقال : أكرهُ أن أدعوه أن يفرّج عنّى ما لى فيه أجرٌ ، وقد صبر سعيد بن جبير على أذى الحجاج حتى قتله .

تطبيق

١ ــ « . . من عادى لى وليا . . وما تقرب إلى عبدى . . . »

تبين لنا هذه الفقرة أنه لا سبيل إلى الولاية سوى طاعة اللهّ ــ عز وجل ــ التى جاء بها رسوله ﷺ ، فمن ادعى أن طريقته التى أخذها عن شيخه أو وليّه المخالفة لصريح القرآن وصحيح السنة توصله إلى محبة اللّه فهو كاذب .

ومن زعم أنه ولىّ الله بقرابته من الإمام على كرم ــ اللّه وجهه ــ وأن ذلك يغنيه عن الامتثال والاعتدال فهو كاذب .

٢ ــ « من عادى لى وليا . . . » . ها نحن نعيش فى عصر تكاتفت فيه الجهود وتضافرت فى حربها للإسلام وأهله . . . رغم تباين مواطنهم واختلاف مذاهبهم ومشاربهم ولا يجمعهم إلا العداء للإسلام .

فمن منّا يتصوّر أن اليهود يسالمون النصارى ويتحالفون معهم وهم الذين أجّجوا معارك ضارية على مرّ التاريخ . . . من منا يتصور أن الأمم النصرانية سترضى يوما عمّن تتهمهم بقتل المسيح عليه السلام ، أو أن تتلاقى جموع الكاثوليك مع البروتستانت . . ومع ذلك يجمعهم العداء ــ كما قلت ــ للإسلام .

وصدق من قال : الكفر ملة واحدة . . يؤيّد هذا تلك الهجمة الغربية الشرسة على الإسلام هذه الأيّام التى أقام فيها الغرب الدنيا وأقعدها من أجل ترويج كتاب مملوء بالدسائس والأكاذيب والسباب الهدف منه النيل من الإسلام وجرح مشاعر أهله ، ثم أعقبها بملاحقات للمسلمين أبناء الجاليات الإسلامية ، ولكن عزاءنا فى قول ربنا : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس ــ رضى اللّه عنهما ــ أن رسول اللّه ﷺ قال : « **إن اللّه تجاوَزَ لى عن أمّتى الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه** » حديث حسن رواه ابن ماجه والبيهقى وغيرهما .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

العقائدية :

« . . وما استكرهوا عليه . . » .

لقد ابتلى المؤمنون الأوّلون بألوان من العذاب يعجز القلم عن وصفها ، والذهن عن إدراكها على أن يعطوا الدنية فى دينهم أو يتراجعوا عن عقيدتهم . . ومع ذلك صبر الكثير منهم وصابر كبلال بن رباح رضى اللّه عنه الذى لم يشف غليل أعدائه ، وظل صامدا يردّد أحد أحد ويقول : واللّه لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها .

وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدا رسول اللّه ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أنى رسول اللّه ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك . وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد اللّه بن حذافة السهمى ــ أحد الصحابة رضوان اللّه عليهم ــ أنه أسرته الروم ، فجاؤوا به إلى ملكهم ، فقال له : تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى ، فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت ، فقال : إذًا أقتلك ، فقال : أنت وذاك .

قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النّصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر ، وفى رواية : بقدرة من نحاس فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه

تجاوز لى : إكراما لى تجاوز أى رفع ومنع .
عن أمتى : أمة الإجابة .
الخطأ : فعل الشىء عن غير قصد .
والنسيان : وهو عدم الذكر والحفظ لذهول أو غفلة .
وما استكرهوا عليه : أى ما أكرههم الغير عليه : فعلا أو تركا .

فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع فى البكرة ليلقى فيها فبكى، فطمع فيه ودعاه فقال: إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة تلقى فى هذا القدر الساعة فى اللّه، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى اللّه.

وفى رواية : أنه سجنه ، ومنع عنه الطعام والشراب أياما ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لى ولكن لم أكن لأشمتك فىّ .

فقال له الملك : فقبل رأسى وأنا أطلقك ، فقال : تطلق معى جميع أسارى المسلمين ؟ فقال : نعم ، فقبل رأسه فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله ابن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه ــ رضى اللّه عنهما[1] .

لأن العقيدة أمر جلل لا يوضع للمساومة والمتاجرة وغير قابل على الإطلاق للتراجع والتنصل تارة والعودة تارة أخرى .

لكن قد تضعف المقاومة الشخصية تحت وطأة التعذيب أو التهديد والإكراه فينطق الرجل بلسانه ما لا يعتقده بقلبه ولا يتفوه به فى غير هذا المقام ، مقابل افتداء نفسه فلا إثم عليه ولا حرج ؛ لقول النبى ﷺ لعمار بن ياسر حينما نطق للمشركين ما أرادوا منه من الكفر ، وكانوا قد عذبوه هو ووالديه : « وإن عادوا فعد » وفيه نزل قول الحق سبحانه : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ [النحل : ١٠٦] . هذا فى الإكراه على القول، وأما الإكراه على فعل مظهر من مظاهر الشرك فقد اختلف العلماء ــ رحمهم اللّه ــ فيه .

فروى عن الحسن فيمن قيل له : اسجد لصنم وإلا قتلناك ، قال : إن كان الصنم تجاه القبلة فليسجد ويجعل نيته للّه ، وإن كان إلى غير القبلة فلا يفعل وإن قتلوه .

وقال ابن حبيب المالكى : وهذا قول حسن .

وقال أبو عطية : وما يمنعه أن يجعل نيته للّه ، وإن كان لغير القبلة وفى كتاب اللّه : ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وقد أجاز العلماء التنفّل للمسافر إلى غير القبلة .

الأصوليـة :

« الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

(١) ابن كثير فى التفسير .

يقسّم علماء الأصول الأهلية ــ أى صلاحية الشخص للإلزام والالتزام ــ إلى قسمين: أهلية الوجوب ، وأهلية الأداء، والأصل فى ثبوت الأهلية الأولى : الإنسانية، وفى الثانية التمييز، ولأهلية الأداء التى هى مناط التكليف ما ينقصها من عوارض ، وتنقسم هذه العوارض بدورها إلى قسمين : عوارض سماوية ــ أى ليست بعمل من أعمال الإنسان ــ وهى الجنُون ، والعته ، والنسيان ، والنّوم ، والإغماء .

والقسم الثانى : عوارض بفعل الإنسان وهى أيضا قسمان :

أحدهما : من ذات المكلف ، وهى السفه ، والجهل ، والسكر ، والخطأ .

والثانى : من غيره وهو الإكراه .

وسنتعرض بشىء من التفصيل للعوارض الثلاثة التى تطرّق إليها الحديث النبوى الشريف الذى هو منطلق بحثنا : الخطأ ، النسيان ، الإكراه .

أولا : الخطأ :

اتفق الفقهاء على أن الخطأ يرفع الإثم الأخروى ، والخطأ هو وقوع الفعل أو القول على خلاف ما يريد الفاعل أو القائل ؛ وقد يكون الخطأ ناشئا عن الجهل كمن يأكل بعد الفجر ، ظانا أنه لم يطلع وينوى الصيام على ذلك .

أما بالنسبة للمعاملات بين العباد فإنه لا يعذر المخطئ إلا فيما يتعلق بالعقوبات البدنية ، وعلى ذلك تكون عقود المخطئ صحيحة على مقتضى المذهب الحنفى .

وبعض الفقهاء لا يلزم بآثار العقود إذا كانت خطأ .

ثانيا : النسيان :

النسيان حال تعترى الشخص تجعله لا يتذكّر التكليف الذى كلفه الشارع إياه ، أو تجعله لا يقوم بحق عبادة قد نواها كالصائم الذى يأكل ناسيا ، ومن ذلك ترك أداء الصلاة فى وقتها .

والحقوق بالنسبة للنسيان تنقسم إلى قسمين :

١ ــ قسم أسقط اللّه الإثم فيه وهو نسيان حقوق اللّه تعالى لقوله ؛ ﷺ : «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » .

٢ ــ وقسم لا يسقط وهو حقوق العباد .

ثالثا : الإكراه :

هو حمل الشخص على فعل أو قول لا يريد مباشرته ، وما دام لا يريده فهو لا يرضى به ؛ ولذلك كان الإكراه والرضا غير متلاقيين .

الفقهية :

فى الحقيقة يدخل هذا الحديث فى جملة عديدة من أبواب الفقه قد لا نأتى على حصرها ، وإن كنا لا نغادره حتى نعدد جلّها فهو ــ أى النسيان ــ يطرأ فى الطهارة ، والصلاة، والصيام ، والحج ، واليمين ، والزكاة ، والدماء ، والحدود ، والطلاق. . . . . إلخ .

الطبية :

قسم الأصوليون الخطأ إلى ثلاثة أقسام :

خطأ فى الأفعال ، وخطأ فى القصد ، وخطأ فى التقدير .

(ومن ذلك بعض أخطاء الأطباء ، وذلك على صور منه :

١ ــ أن يتعرف الداء ، ثم يصف الدواء ، ثم يتبن من بعد أن الداء غير ما وصف، وأن الدواء فى غير موضعه ، فلو مات المريض نتيجة ذلك بعد أن بذل الطبيب أقصى الجهد، فإنه لا مسؤولية على الطبيب ؛ لأن الفعل فى الأصل مأذون فيه فلا موضع للضمان لأنه الاعتداء ، ولو ضمن لأدى ذلك بالأطباء أن يجمحوا عن التطبيب وبذلك تضيع مصلحة عامة ، هى من فروض الكفاية .

٢ ــ أن يؤدى خطأ التقدير إلى قطع طرف من الأطراف بأن يقول : إنه أصابته الآكلة ، ثم يتبين أنه لم يكن ثمة حاجة إلى القطع ، ففى هذه الحال لا تبعة فى هذا الخطأ لأنه اعتداء ما دام قد بذل الجهد .

٣ ــ أنه يقرر أنه لا علاج إلا بقطع عضو من الأعضاء لآفة فيه ، ثم يتبين أنه كان يمكن أن يعالج بغير القطع ، وهذا كالقسمين السابقين ، وشرطه كشرطهما وهو أن يبذل أقصى الجهد .

٤ ــ أن يقدر على الشفاء فى دواء معين مع معرفة نوع المرض ثم يتبين أن الدواء ليس لمثل هذه الحال فإن الخطأ فى كل هذا مرفوع ، وأنه يكون مع هذا الخطأ بعض الجهل بالحالة التى يعالجها الطبيب أو بالدواء .

وقد يكون خطأ الطبيب فى جراحة، ومثاله أن يجرح جراحة فتؤدى إلى موت

المجروح كمن يختّن طفلا ، فيترتب على ذلك موته فإنه لا تبعة .

وأن هذا النوع من الخطأ كان الخطأ فى التقدير أدى إلى الأذى أو القتل أو قطع الأطراف ، لا مسؤولية فيه باتفاق الفقهاء . هذا ولا ننسى أن نقرّر أن كل ذلك بالنسبة للطبيب الحاذق المتخصص الذى بذل أقصى الجهد ، والله ولىّ التوفيق) (١) .

القضائية :

تشترط فى القاضى ــ الذى يقضى بين المسلمين ــ شروط تؤهله القضاء من أهمها :

الإسلام .

الذكورية .

الحرية .

عدم الفسق .

الاجتهاد والقدرة على الاستنباط من المصادر التشريعية .

الفطانة .

النزاهة .

وأن يكون صاحب علم بما يحكم فيه .

فلا يعذر الجاهل بجهله فى هذا الباب . عن أبى بريدة عن أبيه رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة واثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار » (٢) .

وأما الخطأ بعد التحرى والاجتهاد وكان صاحبه من أهله (٣) ، فهو مأجور غير مأزور إن شاء الله تعالى .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » (٤) .

ويؤيد هذا ثناء القرآن الكريم على الوالد والولد ــ عليهما السلام ــ رغم اختلاف حكم كل منهما على الآخر فقال سبحانه : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ

(١) أصول الفقه ، الإمام محمد أبو زهرة ص ٢٨١ ، ٣٨٢ ط : دار الفكر ، القاهرة .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) أى من أهل الاجتهاد .

(٤) البخارى ومسلم .

نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

قال الحسن : لولا ما ذكر اللّه من أمر هذين الرجلين : يعنى داود وسليمان لرأيت أن القضاة قد هلكوا ، فإنّه أثنى على هذا بعلمه وعلى هذا باجتهاده .

وقد روى الرواة فى تفصيل القصة : أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إنّ هذا الرجل أرسل غنمه فى حرثى فلم تبق منه شيئا ، فقال داود : اذهب فإن الغنم كلها لك ، ومرّ صاحب الغنم بسُليمان فأخبره بالذى قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال : يا نبىّ اللّه إن القضاء سوى الذى قضيت ، فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من درّها وأولادها وأشعارها ، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ثم يترادان فيأخذ صاحب الحرث حرثه وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك .

ولا يشفع للقاضى خطؤه عن التراجع عنه ؛ لأن حكمه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا .

قالت أم سلمة ــ رضى اللّه عنها ــ : أتى النبىّ ﷺ رجلان يختصمان فى مواريث لهما ليست لهما بينة إلا دعواهما ، فقال النبىّ ﷺ :« من قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » فبكى الرّجلان وقال كل واحد منهما : حقى لك ! فقال لهما النبىّ ﷺ : « أما إذا فعلتما ما فعلتما فاقْتسما وتوخّيا الحق » ثم استهما ثمّ تحالا .

وفى رواية : « إنما أقضى بينكما برأيى فيما لم ينزل على فيه » (١).

وأما الإكراه بحقّ فهو غير مانع من لزوم ما أكره عليه ، فلو أكْره الحربى على الإسلام فأسلم صحّ إسلامه .

وكذا لو أكْره الحاكم أحدا على بيع ماله ليوفى دينه فالبيع ناجز .

فقه الدعوة

١ ــ لا يعذر الجاهل الذى نصّب نفسه داعية فى سبيل اللّه بجهله الذى يُعرقل سير الدّعوة ، يسود وجهها للعالم ، ولا يناله الأجر بل هو حقيق بالوزر فقد تبّوأ مقعده من النار بإفتائه بغير علم .

(١) رواه أبو داود .

٢ ــ تعانى الدعوة اليوم من ثلة ممّن تُحسب على الدعاة تسعى لفرض مفاهيمها وتصوراتها فرضا ، وتحكيمها فى الناس قهرا ، فلا تشم منهم رائحة الحكمة ، ولا تعرف معاملتهم اللين والرفق فنفروا أكثر ممّا بشروا فاتت جهودهم نتائج عكسية غير مرضية .

٣ ــ يحاول بعض المتعصّبين لرؤوس معيّنة وشخصيات دعوية محدّدة أن يفرضوا على من يتْبعُون هالة من القداسة لا تقبل المناقشة فضلا عن المراجعة ، بل وقد وصل الأمر بطائفة كبيرة من شبابنا اليوم ــ أرشدنا اللّه وإيّاهم ــ أن يتجرّأ على أئمّة هذه الأمّة الأعلام ناهيك عن الانتقاص من أقدارهم وانتقاد آرائهم عن جهل حتى بلغت الوقاحة ببعضهم أن يعلن على المنبر قائلا : قال مالك وأقول . . ! !

لكن الدنيا تقام ولا تقعد ، ويعصفون ويبرقون إذا نبّهت إلى بعض الأخطاء التى وقع فيها بعض الزعماء الحركيّين . . وأقول : أخطاء وأخطاء كبيرة لا ينبغى الدفاع عنها، وأصحابها يعنون ما يقولون ، ويقصدون ما يفعلون . . . ولا أظن أنّها من قبيل الخطأ الذى تجاوز اللّه فيه لنبيه عن هذه الأمة : « إن اللّه تجاوز . . . » .

وإنّى وإن كنت أعلم مسبّقا ما تثيره هذه اللفتة من نقع فلا يزيدنى ذلك إلا حرصا وإصرارا على الكتابة فى هذا الجانب فى موضوع مستقل بحول اللّه تعالى .

تطبيق

إذا كان حكم القاضى المسلم ــ على خطأ ــ لا يحرم حلالا ولا العكس فما بالنا بحكم من لا يحكم شرع اللّه أصْلا ، وهل الحق إلاّ كتاب أو سنة فماذا بعد الحق إلا الضّلال ؟ !

لقد وصل الأمر فى عصرنا هذا ببعض الأمصار الإسلامية إلى تحكيم قوانين الأحوال الشخصية المستنبطة من الأصول القانونية الغربية والغريبة عن مجتمعاتنا الإسلامية . فقد حدث ويحدث مرات ومرات أن يردّ القاضى المرأة لزوجها بعد تطليقات عديدة كما ينصّ قانون بعض الدول العربية على الخصوص بجواز التبنى وحرمة التعدّد . . وتحبيذ التحديد ــ تحديد النسل لدوافع اقتصادية .

يُحاول البعض ممن ولغوا فى دماء المسلمين أن يبرّروا صنائعهم بأنهم جُنّدوا تحت الإكراه والضغط الرسمى لتحقيق أغراض معينة ولكن أنّى لهم من نجاة ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

الحديث الأربعون

عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل» ، وكان ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك . رواه البخارى .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

التصوف الإسلامى :

أولا : سبق وأن تعرّضنا للحديث عن حقيقة الزهد ، ولا بأس أن نشير هنا إشارة بسيطة إلى لازم الزّهد وهو عدم الحرص وطول الأمل ؛ فالمؤمن الصادق لا ينظر إلى الحياة الدنيا إلا كوسيلة فحسب ، ولا يطلبها إلا تحقيقا لأهدافه الأخروية . . لا حرصا على ملذّاتها ، وركونا إليها وأملا فى سرابها الخادع ، وذلك للأسباب الموضوعية التّالية، والتي لا يتدبّرها إلا عاقل :

١ ــ لأن الإنسان إنسان بروحه فهى مناط التّكليف لا بجسمه وثيابه ونياشينه ، ومن ثم فلا يسعى إلى خدمة هذه الكتلة المادّية وإشباع رغباتها وتلبية احتياجاتها غير الضرورية . . ثم هو يطمع فى الثناء والجزاء بل يعمل على تهذيب روحه وعقل شهواتها وكبح جماحها وتطويعها لأمر ربّها ، ولله درّ الإمام محمد بن إدريس الشافعى حيث يقول:

كن فى الدنيا : أى فى حال إقامتك فيها .
كأنك غريب : مشبّها نفسك وأنت بين أهلك بحال الغريب .
أو عابر سبيل : للتنويع أو للترقى ؛ لأن عابر السبيل أقل استقرارا من سابقه .
وكان ابن عمر يقول : أى من شدة تأثره بهذا الحديث كان كثيرا ما يقول لغيره .
إذا أمسيت : دخلت فى المساء .
فلا تنتظر الصباح : بل اعتقد ان الموت أقرب إليك من الصباح .
وخذ من صحتك : من زمن صحتك أوقاتا للطاعات تنفعك .
لمرضك : لزمن مرضك الذى تعجز فيه عن العمل .
ومن حياتك : أى خذ من أيام حياتك أعمالا صالحة تنفعك .
لموتك : لما بعد موتك حيث تنقطع الأعمال والآمال .

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح بما فيه خُسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وفى هذا روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « تعِسَ عبد الدينار وعبد الدّرهم ، وعبد الخميصة إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس . . . » (١) .

٢ ــ ولأن ملكيّة الإنسان للمال ليست ملكية حقيقية بل هى ملكية إضافية ، قال تعالى : ﴿ وأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد:٧] عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه ، قال : أتيت النبىّ ﷺ وهو يقْرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [سورة التكاثر] قال: «يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأمضيت » (٢) .

٣ ــ كما يدرك أن كثرة المال ابتلاء من المولى ــ عز وجلّ ــ ، فقد تطغى بعض النفوس بما فتح الله عليها وأمدّها من مال ، وإن كان لا يمنع العكس عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ : « ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يأيّها الناس هلمّوا إلى ربّكم ، فإن ما قل وكفى خير ممّا كثُر وألهى » (٣) .

وذى حادثة أخرى تبّين أن من الناس من يصلحه الفقر ويفسده الغنى فعن نُقَادة الأسدى رضى الله عنه قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل يستمنحه ناقة فرده، ثم بعثنى إلى رجل آخر يستمنحه، فأرسل إليه بناقة فلمّا أبصرها رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك فيها وفيمن بعث بها» قال نقادة : فقلت لرسول الله ﷺ: وفيمن جاء بها؟ قال:«وفيمن جاء بها» ثمّ أمر بها فحلبت فدرّت ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أكثر مال فلان ــ للمانع الأوّل ــ واجعل رزق فلان يوما بيوم » للذى بعث بالناقة(٤).

٤ ــ وفوق هذا فسيسأل عما ملك وإن قل من أين اكتسبه وبأى طريق جمعه وفيم أنفقه ؛ لقول الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، ولقوله ﷺ: « إنّ أوّل ما يسأل عنه العبد من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك بدنك ونروك من الماء البارد؟!» (٥) .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه ابن ماجه بسند حسن .
(٥) أخرجه الترمذى ، وابن حبان .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهُما النبىّ ﷺ فقال : « ما أجلسكُما ههنا ؟ » قالا : والذى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع ، قال : « والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » فانطلقوا حتّى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة . فقال لها النبىّ ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا الماء ، فجاء صاحبهم يحمل قربته ، فقال : مرحبا ما زارَ العبادَ شىء أفضل من نبى زارنى اليوم ، فعلق قربته بكرب نخْلة ، وانطلق فجاءهم بعذق ، فقال النبىّ ﷺ : « ألا كنت أجتنيت ؟ » فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم ، ثم أخذ الشّفرة ، فقال له النبىّ : « إيّاك والحلوب » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا فقال النبىّ ﷺ : « لتسألن عن هذا يوم القيامة أخرجكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النّعيم » [١] .

٥ ــ العاقل لا يقيم للدنيا وزنا فما هو عند الله أهون من الجيفة النتنة ، بله من أن يعبدها ويفنى شبابه فى خدمتها وجمعها من الحرام والحلال .

ولقد شبّه النبىّ ﷺ الدنيا لصحابته بما يقزز النفوس ، عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق ، والناس فى كنَفَتيه ، فمرّ بجدى أسكّ ميّت ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : « أيكم يحبّ أن هذا بدرهم ؟ » فقالوا : مَا نحبّ أنه لنا بشىء ، وما نصنع به ؟ قال : « أتحبون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيّا لكان عيبا فيه لأنه أسَكُّ ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « واللّه للدّنيا أهون على الله ، من هذا عليكم» [٢] .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » [٣] .

٦ ــ ولنا فى حياة النبىّ ﷺ المثل الأعلى والدليل الأقوى على أن بهرجة الدنيا لا وزن لها ولا قيمة مقابل النعيم الأبدى والخير السرمدى ، وحتى نقف على جانب من حياة المصطفى ﷺ نورد هذه المجموعة من الأحاديث النبوية :

ــ فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام تباعا حتّى قبض .

ــ وفى رواية قال أبو حازم : أرأيت أبا هريرة يشير بإصبعه مرارا يقول : والذى

---

(١) أخرجه ابن جرير ، ورواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة بنحوه .

(٢) رواه مسلم . (٣) رواه الترمذى ، وابن ماجه .

نفس أبى هريرة بيده ما شبع نبى الله ﷺ ثلاثة أيّام تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا(١) .

ــ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن فاطمة ــ رضى الله عنها ــ ناولت النبى ﷺ كِسرة من خبز شعير فقال لها: «هذا أوّل طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيّام»(٢) .

ــ وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « عرض علىّ ربى ليجعل لىَ بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا ياربّ ، ولكن أشبع يوما ، وأجوع يوما » ، وقال : ثلاثا أو نحو هذا : « فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»(٣) .

ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه مرّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوْه فأبى أن يأكل ، وقال : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير (٤) .

ــ وعن عروة عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها كانت تقول : والله يا ابن أختى إن كنّا لننظر إلى الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلّه فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار . فقلت : يا خالة ، فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التّمر والماء إلا أنّه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منَايحُ فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه (٥) .

ــ وعن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر فى جبه قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء ؟ فقال : « مالى وللدنيا ما أنا فى الدّنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (٦) .

ــ وعن عمرو بن الحارث رضى الله عنه قال : ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهما ولا دينارا ، ولا عبدا ، ولا أمة ، ولا شيئا إلا بلغته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه ، وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة (٧) .

ثانيا : يورث الحرص وطول الأمل نتائج سلبية خطيرة :

أولها : يسبّب قلة الحياء من المولى ــ عز وجل ــ ، فقد روى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ﷺ على المنبر والنّاس حوله : « أيها النّاس استحيوا من الله حَق الحياء » فقال رجل : يا رسول الله إنّا لنستحيى من الله تعالى ،

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه أحمد والطبرانى .
(٣) رواه الترمذى .
(٤) رواه البخارى والترمذى .
(٥) رواه البخارى ومسلم .
(٦) رواه الترمذى وابن ماجه .
(٧) رواه البخارى

فقال : « من كان منكم مستحييا فلا يبيتنّ ليلة إلا وأجله بين عينيه ، وليحفظ البطن وما وعى ، والرأس وما حوى ، وليتذكر الموت والبلى ، وليترك زينة الدنيا » (١) .

ثانيها : وطول الأمل ونسيان الأجل أمارة على الشقاء والعياذ بالله كما بين ذلك ﷺ فيما رواه عنه أنس رضى الله عنه : « أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » (٢) .

وثالثها : يسبب الحرص قسوة القلب التى تناولنا البحث فيها بشىء من التفضيل فى بعض الأحاديث السابقة .

الفقهية :

« . . . . أو عابر سبيل » .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فتعطى الزكاة الواجبة إذًا لابن السبيل الذى تغرّب فى غير معصية شريطة أن يكون حرًا ، مسلما ، غير هاشمى يحتاج إلى ما يوصله إلى بلده ، ولو كان غنيًا ببلده لكنه لم يجد مقرضا ، ويصدّق الغريب فى ادعائه الغربة بلا يمين ، وتنزع منه الزكاة إن جلس فى بلد الغربة وكان غنيا فى بلده .

الاجتماعية :

شأن الغريب عن أهله ووطنه ، وكذا عابر السبيل الذى نزل فى طريقه بمكان مّا للاستراحة وليجدّد قوته ، الإعراض عن كل ما يلهيه عن مقصده أو يطيل فى غربته ، وَذَا هو حال المؤمن الكيّس ، فلا ينافس الناس متاع الدنيا الزائل ، ولا يخاصم فى سبيل عَرَضها الحائل .

ومن ثم فتذكّر الموت خير واعظ ، ومن لم يعظه هادم اللذات كما سمّاه رسول الله ﷺ فلا واعظ له ، عن ابن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : «أكْثروا ذِكر هادم اللذات ــ يعنى الموت ــ فإنه ما كان فى كثير إلا قلّله ، ولا قليل إلا جزأه » (٣) .

لقد سما الصحابة الكرام عن بهرج الحياة الدنيا ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فنبذوا الخلاف فيها والتنازع عليها ، بل وآثر كلّ منهم صاحبه على نفسه ، فأثنى عليهم

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط . (٢) رواه البزار . (٣) رواه الطبرانى بإسناد حسن.

ربهم بقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ، وأخرج البخارى ومسلم والترمذى ، والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

أتى رجلٌ رسول الله ﷺ فقال : أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ » .

فقال أبو طلحة : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله ﷺ قالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية ، قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السّراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله ﷺ ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام :« لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾» [الحشر : ٩] .

ولقد كان رسول الله ﷺ يبشّر صحابته بفتح الأمصار واغتنام الغنائم ، وفى نفس الوقت يحذرهم من الافتتان بها ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : نظر رسول الله ﷺ إلى الجوع فى وجوه أصحابه فقال : « أبشروا ، فإنّه سيأتى عليكم زمان يُغدى على أحدكم بالقصعة من الثريد ويراح عليه بمثلها » قالوا : يا رسول الله : نحن يومئذ خير ؟ قال : « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ » (١) .

ويبيّن لهم أنّها السبب فى إهلاك الأمم السابقة ، عن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافَوْا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فتبسم حين رآهم ثم قال : « أبْشروا وأمّلوا ما يسرّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (٢) .

والتنافس والتطاحن نتيجة للحرص القاتل على الدنيا يُضرّان بالأمّة ويهدّدان أمنها وأخلاقها واستقرارها ، ويبْتران العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية ، ويزعزعان كيان الأمة بأكملها ؛ فتصبح الروابط المادّية فوق أىّ اعتبار ، وتوزن العلاقات الاجتماعية بميزان المصلحة ، وتكال المحبّة ، والإخاء ، والرحمة ، والأبوة ، والبنوة ، والزوجية بمكيال الدينار والدرهم .

---

(١) رواه البزار بإسناد جيّد .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ لكل أمّة فتنة، وفتنة أمتى المال » (١) .

وعن أبى سنّان الدّؤلى أنه دخل على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعنده نفرٌ من المهاجرين الأوّلين ، فأرسل عمر إلى سَفَط أتى به من قلعة العراق ، فكان فيه خاتم فأخذه بعض بنيه فأدخله فى فيه ، فانتزعه عمر منه ، ثم بكى عمر رضى الله عنه ، فقال له من عنده : لم تبكى وقد فتح الله عليك ، وأظهرك على عدوّك وأقرّ عينك؟! فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله ــ عز وجل ــ بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وأنا أشفق من ذلك » (٢) .

ــ وعن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتّقوا الشحّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم » (٣) .

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحبّ الفحش ولا التفحّش ، وإيّاكم والشحّ فإنه فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » (٤) .

ــ وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(٥) .

النفسية :

١ ــ إن للشيطان ــ أعاذنا الله منه ــ دراسةً وافية عن نفسية البشر ، ومعرفة كاملة بمكامن الضعف والثغرات الخطيرة التى يدلف منها الإنسان لاستهوائه ، ومن بين هذه الثغرات الأمل وعبْره ينفث سمومه ووساوسه لإغواء النّاس تحقيقا للعهد الذى أخذه على نفسه حين أقسم بربّ العزّة ألا يدّخر جهدا فى سبيل صدّ العباد عن صراط ربّهم المستقيم ، قال تعالى حكاية عن وسوسة إبليس لوالدى البشرية ــ آدم وحوّاء ــ : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) رواه أحمد بإسناد حسن ، والبزّار ، وأبو يعلى .
(٣) رواه مسلم والإمام أحمد .
(٤) رواه أحمد وأبو داود .
(٥) رواه الترمذى .

فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠ ــ ٢٢] .

وها هو نفسه يكشف عن هدفه ووسائل تحقيق ذلك الهدف الخبيث كما بيّنها لنا القرآن الكريم أيضا :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا . أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء : ١١٧ ــ ١٢١] .

فعلى المؤمن أن يسدّ هذه المنافذ وأن يشدد الحراسة على هذه الثغور النفسية حتى لا يؤتى من قبلها فتزلق به الأمانى .

٢ ــ الحرص على الدنيا يورث الغفلة عن النّعم ، والنّعم ابتلاء ومصيرها إلى الزّوال ، فلا يلبث الغافل أن يندَم عليها ولات حين مناص فلا ينفع السخط ولا التأفّف، بل يزيدان الغافل الحرج والحسرة فلا يفتأ أن يأكل يده ، ففى صحيح البخارى عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال: « نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » . وفى صحيح الحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

وتوالت الآيات القرآنية فى وصف النّادمين كقوله تعالى :

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ . أن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىَ عَلَىَ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٥٥ ــ ٥٨] .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىَ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىَ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٠].

وقوله عزّ وجل : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىَ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا

وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١٠ ، ١١] .

والندم يورث القلق والأرق وأمراضا عصبية أخرى لا يكون الإنسان فى أمان منها إلا إذا اغتنم فراغه وصحته ، وشبابه وحياته فى صالح دينه ودُنْياهُ قبل أن يجهز عليه أضْدَادها .

فقه الدعوة

١ ــ أخذ النبىّ ﷺ بمنكبى عبد اللّه بن عمر فى بداية حديثه له ، ووصيته إليْه؛ إيناسًا له وإعلامًا بمزيد محبته ، وجمعا لِفِكْره .

وذى صلة الدّاعية بمدعويه التى تضمن فعاليتها فى النفوس وتأثيرها فى القلوب ، فهو القريب إليهم لا ينظر إليهم نظرة استعلاء واستهجان من أبراج عالية وضع نفسه فيها، أو رفعته المنابر والأرائك إليها ، شأن بعض المحسوبين على الدّعوة اليوم .

٢ ــ من مقولة سيدنا ابن عمر رضى اللّه عنه : إذا أمسيت فلا تنتظر . . المستخلصة من الحديث النبوى نستفيد أن دعوة الداعية يجب أن تنطلق من منطلقها الأساسى : القرآن والسنة النبوية الشريفة .

تطبيق

قد يبدو لبعض منّا التّعارض بين ذمّ طول الأمل والحثّ على العمل ، والحقيقة الجليّة ألا تعارض قط ؛ لأن المرء منا مركب من قبضة الطين ونفخة الروح .

والإسلام بوسطيته يعدل بين هذه وتلك ، وما ذمّ طول الأمل إلا علاج نبوىّ شريف لمن انساق وراء شهواته فمالت به إلى كفة المادّة على حساب الجانب الأسْمى ، ويَبْرز هذا قويّا فيما أثر عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله تعالى عنه ــ : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبَدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وعدم الموازنة بين شطرى الإنسان إفساد فى الأرض كما حذّر منه الصالحون من بنى إسرائيل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ ، ٧٧].